شيءٌ من بعيدٍ نادانِي

QUELQUE CHOSE DE LOIN M'A APPELÉ

سيرة روائية

أحمد طايل

الحكاية وامتداد الجذور في رواية (شيء من بعيد يناديني)

يعتمد الروائي أحمد طايل على الفكرة في إنتاج روايته، والفكرة مفادها تلك الروح الممتدة من بدء التكوين حتى الوقت الراهن الذي شهدت فيه مصر التغيرات السياسية في عصر التحوّل الديني في النقاشات الوطنية.. ولأنه مهموم بالجذور فإن الرواية بالنسبة له تحاكي هذه الثيمة.. ثيمة الجذر الخلّاق لمصر العظيمة.. ولهذا فإنه (خلق) شخصيات متخيّلة استلّها من الواقع، وجعل الواقع يتحكّم بالصراع وتوحيد الثيمات للوصول الى هدف (مخبوء يراد منه إماطة اللثام عنه وإن كان متخيّلًا.. فالفكرة كهذه لابد أن تكون فيها الآثار حاضرة.. آثار مصر الممتدة عبر التاريخ.. صراع الوجود أمام كلّ التحدّيات التي تواجهها مصر والعادات والتقاليد.. مصر بهويتها الكبرى الوطنية التي أراد (طايل) أن يحوّلها الى وحدة واحدة، لا تنثلم أمام المحن. فالشخصيات لها أعمار مختلفة والبطل الرئيسي فتاة هي الأصغر بين الشخصيات، وهي إشارة دالة على الامتداد والجذور، مثلما للشخصيات الأخرى مواقف وانتماءات

متنوعه، وبالتالي لها نوايا مختلفة لكنها تصبّ في صالح الفكرة التي جعلها على شكل حكاية تتّخذ عددًا من (الحدّوتات) كما يعرف السرد المصري بذلك لتكون بوّابتها الخاصّة التي تحوّل هذه الحكاية الى مثلّث صراعٍ يهتمّ بالتعاطي مع الواقع من جهة، وينصع متنًا سرديًا يتعاطى مع المتخيّل الروائي من جهةٍ أخرى.. وهذا المثلّث هو المكان حيث يتشعّب ما بين مصر – أمريكا- بريطانيا.. ورغم أن المكان المصري توزّع ايضا على أماكن عديدة.. مواقع آثارية.. ريف.. مدينة.. لكن ما يجمعها وجود الشخصيات الرئيسة التي تخوض المعارك السردية التي تتوزّع على فعّاليات منها المواقع الآثارية.. النباهة.. الجذر.. الدين.. السياسة.. الموقف وحتى المقابر.. وما بين الماضي الذي جعله الروائي ثريّا عليا تضيء الفكرة الأساس، وما بين الواقع الحالي الذي أريد له أن يتحوّل مع بعد الربيع العربي الى خريف من خلال لوحة صراعٍ أرادها أن تكون منيبةً عن الموقف الشخصي من الواقع.. لكنه يصبّ في صالح حبّ البلد وإن جاءت تلك المعالجة بشكلٍ مباشر. ولهذا فإن العنوان الذي اتخذه ليكون البوّابة التي تدخل منها كلّ الأفكار التي تحتويها الفكرة/ الحكاية.. (شيء من بعيد يناديني)

يحمل الكثير من الأهداف التي ترتبط بالجذر، وإن كانت على شكل أغنية تتوضّح في أبعادها الدلالية والقصدية في نهاية الرواية، بل الجزء الأخير جدا من الرواية، حين جعلها على قصديتين لدلالتين ترمزان الى الواقع المعاش في الزمن الراهن.. أي الامتداد الجذري لها.. فهو جعل العنوان يتكرّر مرّتين في النهاية:

الأولى: على شكل أغنية وهنا الذوبان النغمي والتعاطي الروحي والعاطفي.(تسرع إلى الكاسيت، تخرج من حقيبتها الشريط، تضعه داخله، تسمع بإنصات تام، شيء من بعيد ناداني، بصوت (شادية ومنير وليلى جمال)، تردد مع الغناء، وقد تنهض تفرد ذراعيها، تلف وتدور على أطراف أصابعها، كأنها بليرينا بالأوبرا)

الثانية: على شكل كتابة ما يشبه الرقيم في الدلالة الاعتبارية (لوحة بنوع فاخر منه، مكتوب عليها بالعربية والإنجليزية، شيء من بعيد ناداني).

إن الحكاية هيمنت على المتن السردي لهذا اعتمد الروائي في لعبته التدوينية على ثلاثة سبل:

الأول: استخدام التقطيع والتناوب بين الشخصيات من خلال فصول لها عناوين مركزية وحركة الشخصيات وعملية الرابط الجذري بين أعمار الشخصيات وحركتهم من الأحفاد الى الأجداد

الثاني: استخدام التناوب الزمني بين الماضي والحاضر لتفعيل دور المكان وأهميته في الحدث المركزي، لكنه هنا جعل المستقبل هو الناتج الأخير المستحصل من المستوى القصدي للرواية

الثالث: استخدام الحوار كطريقةٍ مثلى لبثّ الأفكار التي ترتبط بالهدف والقصد الذي شكّلت أحداث الرواية، وهو الحوار الذي يمتد على مساحات واسعة وخاصة تلك التي فيها شروحات من أجل إعطاء الشخصيات أبعادها التاريخية والاجتماعية والثقافية.

ومن أجل تثبيت أركان هذه السبل فان اللعبة التدوينية في الرواية حملت معها ثلاث غايات:

الأولى: الغاية العاطفية التي تتمحور داخل الروائي / المؤلف.. وقد برزت بشكلٍ لافتٍ لتبيّن انحيازه التام لهذه الشخصية أو تلك أو لهذه المنطقة أو تلك أو حتى للأفكار

التي يحملها البعض دون البعض، وإن خلت الرواية من العناصر السلبية التي تشدّ الصراع، كون الحكاية في اختيار قماشها الأول قبل خياطته، كان يريده أن يكون جلبابا (أبويا) وهو ما جعله يذكر ذلك (إن مصر ساكنة داخل كل أبنائها)

الثاني: الغاية الوطنية التي تقول إن البلاد عظيمة وفيها الكثير من الجذور التي تعطي مفخرةً لمن يعيش فيها.. فمصر العظيمة ليست فقط واقعًا اقتصاديا آنيا متأثرًا بالتغيرات العالمية، بل هي حضارة منتشرة، ليس في مصر بل العالم أجمع، لذا وسّع رقعة المكان الى خارج البلد ليشمل، دولًا كبرى لكنها أقل حضارة من مصر، بدليل إن الآثار المصرية لديهم، مثلما هي تشكل مركزية الخارطة العربية (مصر على امتداد تاريخها حضن العرب)

الثالث: الغاية الاجتماعية التي تعطي التماسك الأسري والعلاقاتي بين فئات الشعب سواء من كان مسلمًا أو مسيحيًا.. ريفيًا أو مدينيًا.. فهي التي تشكل الروح الاجتماعية للبلد.. (لماذا؟ هذه البلد لا تفرّق يوما بين مسلم ومسيحي؟)

لقد صنع الروائي أحمد طايل روايته على أساس الحكاية وما يمكن أن يرافقها من أحداثٍ أرادها أن تكون في مصدر الضوء الذي يحيط الشخصيات، لتكون جميعها تحت المنطقة

المنظورة للقارئ، الذي لا يحتاج الى كثير العناء ليفكّك القصديات، وهو ما جعل المستوى الإخباري في المتن الروائي هو المهيمن الذي عملية السرد وتحويل الفكرة من حكايتها المركزية الى منطقتها السردية، مما جعله يلجأ في الكثير من الأحيان الى ممارسة لعبة الوصف باستخدام المستوى التصويري للمكان ومراقبة حركة الشخصيات بطريقة التفعيل السينمائي حين يلجأ ضمن اللعبة التدوينية الى مراقبة ومتابعة كلّ حركةٍ مرتبطةٍ بالشخصية والمكان. ولهذا فهو يتنقّل ما بين الفصول عبر مهمّتين رئيسيتين:

الأولى: استخدام التقطيع السينمائي في متابعة راصدة لكلّ صغيرة وكبيرة في المشهد الواحد داخل الفصل الواحد وهو ما يجعل بعض مشاهده السردية طويلة لرصد الحركة أكثر من الفعل الذي تقوم به الشخصية كمناوبة للحدث التفعيلي.

الثانية: استخدام التنقّل الزمني بطريقة يريد إضمارها الى القارئ ليكتشف أسرار العلاقات بين الشخصيات العديدة التي حفلت بها الحكاية.

ومن هذه الفاعلية ظلّت الحكاية مهيمنةً بشكلٍ كبيرٍ وبتدخّل الروائي/ الكاتب على حساب الراوي الضمني وخاصة في المواقع (العاطفية)، سواء منها تثوير العلاقات والجذور أو

السياسية التي حاول من خلالها ألّا ينفرّط عقد الشخصيات، حين جمعها في مكانٍ واحدٍ رافضٍ لكلّ ما هو سيّء - بحسب اعتقاده – الى البلاد بحضارتها وتاريخها وجذورها.

علي لفتة سعيد

أديب وناقد عراقي

..1..

أول الحكاية

يُومٌ جَدِيدٌ

كثيًرا جدا ما ساورها الشك في تحقيق الأحلام، وكثيرا جدًا ما كانت تستعيد كلمات العرافة العجوز التي التقت بها ذات يوم وهى تجلس بين والديها بأحد متنزهات لندن، كانت حينها بالخامسة عشر من العمر، مازالت نظرات العجوز ماثلة أمام بصرها، يومها أخذت وقتا طويلا بإمساك يديها، تضغط عليهما بشدة حتى أنها ندت عنها بعض آهات الألم، صوبت نظراتها بعمق وحدة، نظراتها كانت مثل السهام تصوب إلى دواخلها، شعرت بقشعريرة حادة تنتابها، حتى أنها وجدت نقيضين تشعر ب بهما، برودة شديدة بأطرافها، وبذات الوقت حرارة حادة ملتهبة أشعلت وجهها كاملا، أحست بأنها تسبح بفضاء غير متناهٍ، كل حواسها كانت بحالة من اللاوعي، طال الزمن، والعجوز تكتفى بتصويب نظراتها من أعلى الرأس حتى أخمص قدميها، كلما طال أمد هذا كلما شعرت وكأن العجوز تنزع عنها ثيابها كاملة، حتى إنها لا إراديًا ضمت ذراعيها على صدرها كأنها تحاول ستر عريها، انتبهت على همس وهسيس صوتها رغم أنها كانت تصرخ وهى تتكلم، حتى أن والديها فزعا من صرخات العجوز، قالت:

- سوف تحلمين كثيرا ابنتي الصغيرة الجميلة، سوف تظلين بحالة حلم لسنوات تقترب من خمس أو ست وبالنهاية حلمك الذي يراودك ويدور برأسك من أعوام ربما منذ بدأت رحلة الوعي والتساؤل والفضول سوف يتحقق وتنتهي رحلة الحلم بمستقر دائم وأخير،تتمنينه وأثق أنك تعرفين مقصدي وتعرفين حلمك، سوف تنالين سعادة يتمناها كل إنسان.

نهضت بسرعة، بشكل أدهش الجميع، عجوز تنهض وكأنها بالعشرين، أسرعت بلا انتظار للمقابل، الدهشة أمسكت بهم جميعا ولكنها أسرعت ملاحقة لها تمسك ببعض المال، للحقيقة لا تعرف كم قيمته، لاحقتها، أمسكت بها، وضعت المال بين يديها، رفضت مرارًا ولكنها أصرت، المرأة أمسكت معصمها صوبت نظراتها بعمق وهمست.

- هناك ما لم أحدثك عنه أمام والديك وجميل أن أتيت خلفي، حلمك ليس هنا، ليس هنا، هو ببلاد بعيدة سوف تناديك وسوف تسمعين النداء دوما وكثيرا، لا تتخلى عن حلمك، التخلي عن الأحلام بسبب مبررات التخوف يقتل الأشياء الجميلة داخلنا، كونى بخير ابنتي، دعي حلمك أمانه لا تتركيه أن يغادرك بإرادتك أو رغما عنك، خبئي حلمك بين أضلعك حتى لا يسرق أو يتعرض للحاسدين وما أكثرهم بكل

الزوايا الحياتية، لم تزد أسرعت بالهرولة، تابعتها حتى تلاشت من أمام عينيها،

أحست كأن قديمها قد غاصتا بالأرض لعمق كبير، حاولت مرارًا السير ، لم تفلح، جلست القرفصاء، وضعت الرأس بين يديها تستعيد كلمات العجوز وتساؤل بداخلها هل فعلا عرفت العرافة العجوز طبيعة حلمها والنداء الخفي الذى يرافق أيامها ولياليها من سنوات؟ لم تخبر والديها أو أحد من صديقاتها بما تراه ويتجسد كل ليلة أمام ناظريها وبوصية العجوز لن تخبر أحدا، طال مكوثها، الأب والأم انتصبا قائمين، مندهشين من المشهد ،لا يجدان تفسيرا لما يرونه، هل أصاب ابنتهما الوحيدة مس من السحر؟، هل أطلقت المرأة العجوز بعض حِيَلِ السحر والشعوذة عليها؟ ذهبا مسرعين إلى مكان جلوسها مندهشين من هذا الوضع، اصطنعا ثبات نفس وبشاشة وجه، مدا الأيدي معًا، أنهضاها، وضعاها داخلهما مطبقين عليها بصدريهما، أخذا بتمرير الأيدي على شعرها والربت بحنان بالغ عليها، ضحكا بصوت عال، خاطبها الأب..

- ابنتنا الغالية، العرافين والعرافات خير من يجيد فن الكلام واللعب على النفس البشرية وجعلها تدور بفلك الأحلام

والتمني، أعترف بأن لهم قدرة عجيبة على قراءة دواخل الإنسان ونسج الأحاديث التي تجعله أسيرًا لما يقولون، لا تلقى بالا إلى ما سمعت وعيشي أيامك كيفما تريدين، استمتعي بشبابك وأيامك، لا تدوري بفلك أضغاث لكلام أغلبه مجرد كلام لجلب المال، هل نسيتي أن هذا هو مجال عملي وأجيد تحليل مشاهداتي، هيا لنكمل يومنا ونعيش باقي عطلتنا بحب وسعادة.

نظر إليها نظرة عطف وحب طاغ رغم أنه والأم شاطراها هذا، هي ابنته بملامح بعيدة جدا عن ملامحهما وإن أخذا منها بعض السمات، ملامح أهل الشرق هي الغالبة عليها، القوام الممشوق، البشرة البيضاء المشوبة ببعض الخمار يضفى عليها جمالا، العينان الواسعتان الفيروزيتان، أنف مدبب مما يطلقون عليه أنف النبلاء، الشعر شديد السواد أشبه بالليل الحالك، طويل ناعم مسترسل حتى بعد الردفين، حتى بطباعها تخرج على النمط الحياتي المتعارف عليه بدولتهم، الهدوء المبالغ به، الحديث بحساب، هي عكس هذا، مرحة، شقية لحد كبير تعيش كل الأجواء بجنون وتمرد، ضحكاتها تعلو دون أي قيود، ما كان عليهم بعد زيادة مساحات الدهشة، إلا أن ينتظرا خبيئة الأيام مع متابعة دقيقة لها

للوقوف والتصدي لأي جنوح يخرج بها عن المسار الذى تسير عليه حياتهم.

لم تعقب بشيء وإن فعلت بها هذه الكلمات والمصادفة الغريبة أن تجد عرافة بهذا المتنزه الأرستقراطي، فعلت بها الكثير والكثير، صارت تطن دوما بأذنيها، وتساؤل أوحد ملح، بماذا تعنى هذه الكلمات وهل ممكن تحقيقها على أرض الواقع، حلمك ليس هنا، هو ببلد بعيد يكون مستقرك، أي بلد تعنيه هذه المرأة ؟.

بعد هذا الحدث بما يقرب من سته أشهر جاءت لوالدها الدكتور(تشارلز آدامز)دعوة من إحدى الجامعات الأمريكية لإلقاء بعض المحاضرات في تخصصه (النفس البشرية وتأثيرات الزمان والمكان)، سافرت الأسرة معه على غير المعتاد، مؤكد هو أرادها لتغيير الأجواء وإبعاد ابنته عن هذا التفكير الملازم لها والذى يلاحظه دوما، زادت مساحات شرودها وبعض العزلة رغم محاولاتها عدم إظهار هذا حتى تبعد عن مدارات التساؤلات من أبويها، هي ابنته ويجيد قراءتها جيدا جدا، هي تتذكر هذا اليوم رغم مرور أكثر من خمسة أعوام، حينما خرجا من مطار نيويورك وركبا السيارة التي كانت بانتظارهما من جهات الدعوة، المقلة لهم حتى

فندق الإقامة، وهى بطبيعة كل البشر حال النزول إلى مكان جديد بمجتمع جديد، وضعت وجهها على نافذة السيارة تتابع وتتأمل ما يمر بها، لفت نظرها تعدد لوحات إعلانية مضيئة مصنوعة بشكل فنى جذاب وبصورة مبهرة لمعرض حسبما هو معلن لفرعون مصري صغير الملك(توت عنخ آمون).

بعد قسط طويل من الراحة وعلى مائدة الطعام بالفندق أبدت رغبتها لزيارة المعرض وأنها تريد أن يبادر والدها بحجز تذاكر الدخول لهما من خلال خدمة النزلاء بالفندق، الأب أبدى ترحيبه ونهض من فوره طالبا من إدارة الفندق حجز تذاكر دخول المعرض، أخرج الموظف جدولا تصفحه قليلا وقال..

- أقرب يوم به إمكانية الحجز بعد ثلاثة أيام، هل الموعد مناسب لك؟، أشار الأب إلى ابنته للذهاب، شرح لها الأمر وافقت ولكنها طلبت الحجز ليوم آخر إضافي، مؤكد معرض مثل هذا لابد من وقت طويل لمعرفة تفاصيله، وافقها الأب وحجز يومين يفصل بينهم ثلاثة أيام، أحاط كتفيها بذراعه، همس لها..

- هل أملك ان أرفض طلبا لجميلتي الحبيبة، (لويزا) نحن جميعا خلقنا الله لتوفير سبل السعادة لها؟

احتضنته بقوة ومالت تقبل وجنتيه، عادت إلى المائدة وهى تقفز على الأرض وكل لحظة تعانق الأب وتقبله، وهو سعيد للغاية بسعادتها، أكلت بمنتهى الشهية، صعدا الى حجرتهما ، أخذت حماما دافئا، هي بحاجة ماسة للنوم، كانت تغنى أثناء حمامها ولعلها المرة الأولى التي تغنى بهذا الصوت العالي، غنتlive (I love you)، ألقت بنفسها فوق الفراش، أغمضت عينيها بحثا عن نداء للنوم، وكان حنونا، لبى طلبها، راودها حلم أنها تسير بين معابد ورسومات ونقوش، وناس ترتدى أزياء لم تعرفها من قبل، أزياء شديدة الأناقة، كثيرة التطريز، وتراءت لها العرافة العجوز وهى تنادى عليها وتمد يدها لتأخذ مردودا.

- هنا مستقرك وحياتك ، هنا عشقك اللانهائي لا تتركي مطلقا يد حلمك، الحلم يأتي لصاحبه ولا ينتظر طويلا، فلا تبطئي وتجعليه ينتظر، الأحلام لا تنتظر.

صارت كل لحظاتها أسيرة هذه الكلمات التي تطن دوما بأذنيها، ليلا ونهارا، يقظة ونوما، كانت تتلهف للنوم حتى ترى المشاهد الليلية التي صارت رفيقتها منذ أن جلست إلى العرافة، ترى نفسها وسط هالات من النور ، وأطفال أصحاب وجوه جميلة تشع نورا، تمد الأيدي، تنادى يديها،

تأخذ بها إلى عوالم بها الكثير من الدهشة، تراقصهم، تتغنى معهم بلغة مختلفة عن لغتها، صار الشرود مصاحبا دائما لها، بكل خطواتها، ما كان يوقظها من نوبات شرودها التي صارت محل دهشة الأب والأم ولا يجدا تفسيرا لما يرونه على قسمات وجه ابنتهم، إلا تشوقها الدائم لزيارة المعرض، كانت اللهفة تمسك بتلابيبها، توقظها من كل شيء، هي تتوسل للوقت أن يمضى وأن يهرول، خيل إليها أن عقارب الزمن توقفت، لا تتحرك ولا تبدي أي محاولة للتحرك، وقفت أمام الساعة الحائطية العتيقة التي توارثتها العائلة من سنوات بعيدة، والتي يصر الأب على أخذها بأي رحلة من رحلات عمله أو إجازاته، عقدت يديها على صدرها، تكلمت بصوت عال، أتى بأمها من شرفة الفندق التي تجلس بها، تتأمل كل ما بالشوارع المحيطة من حركة، أتت مهرولة وعيناها تتساءلان عما أصاب الابنة، كانت تتوسل وتتضرع للساعة.

- أسرعي أرجوك، لما هذا البطء؟

وقفت الأم ذاهلة وتمتمت.

- ماذا بك صغيرتي،؟ الله يلطف بنا.

اندفعت إلى أخذها بين أحضانها، ضمتها بشده، أخذت تقبلها بشراهة، تدافعت دموعهما تزيد من وطأة جزعهما، همست الابنة بأذن والدتها.

-إطمنّي أمي، أنا فقط أتلهف للمعرض، هناك ما يشدني له، لا أدرى سببا لهذا، لا تجزعي أمي.

-ليس لدى إلا دعائي لك بالسعادة، أنت ثروتنا (لويزا) الغالية.

عاودتا العناق والقبلات، أمسكت الأم بيدها، سارت بها إلى أقرب مقعد، أجلستها، أخذت تمرر يدها على جبينها، تتمتم ببعض تراتيل الإنجيل، مالت ثانية وقبلت جبين ابنتها هامسة.

-كوني دوما برعاية الرب

..2..

نقش الزمن

النوم غادر عينيها ليلة الذهاب إلى المعرض، أخرجت كل الثياب، قامت برصفها على الفراش، تنتقى إحداها ثم تتراجع، تذهب لآخر وتتراجع، طال بها الأمر لساعات، بعد جهد اختارت ثوبا سماويا رأت أنه مناسب للحدث، ارتدته وأخذت تتراقص أمام المرآة، تدندن بأغنية تنم عن فرحتها، نزعت الثوب، ألقت بنفسها على الفراش، لابد لها من بعض الراحة حتى تكون في غاية بالتركيز، راحت في سبات عميق، لم يكن لها أي تفكير يبعدها عن النوم، صحت على يد

حنون تمر على كل محيطها، تبث بها دفئا وطمأنينة، وهمس خافت.

- انهضى صغيرتي، ليس لدينا من وقت كثير، انهضي، خذي حمامك الدافئ، ننتظرك للإفطار ثم الذهاب مباشرة إلى المعرض، هيا حبيبتي.

اندفعت قافزة من الفراش كأنها لاعبة ماهرة من لاعبات الجمباز، أخذت بالهرولة نحو الحمام وهى تنضو ملابسها قطعة قطعة وتقذف بها متضاحكة غير مبالية بآهات الدهشة التي تند عن والديها، خرجت من الحمام تتراقص كباليرينا في عرض بالية، تفتح ذراعيها على سعتهما، تقف على أطراف أصابعها، تبعثر شعرها على وجهها، تعلو ضحكاتها بشكل هستيري، الأب والأم اكتفيا بفتح الحدقات وفغر الأفواه وضرب الأكف، بعد وقت طال جلست إلى المائدة، تتناول الطعام ، تقذف اللقيمات بسرعة إلى فمها، أسرعت بالهرولة إلى حجرتها، ارتدت الثوب المختار، عقصت شعرها على شكل ذيل طويل، زينته بزهرة بنفسج صغيرة، كل شيء كان يتم بهرولة، أسرعت بالخروج وهى تتراقص متمايلة يمينا ويسارا، أمسكت بيدي والديها، أنهضتهما، سارت بهما بسرعة لا تناسب عمريهما، على طول المسافة من مغادرة

جناح إقامتهم حتى المصعد وهى تتراقص مثل فراشة تتراقص أمام أضواء مصابيح عدة، حتى أن بعض النزلاء وقفوا يشاهدونها وهم يتضاحكون، بل سارع البعض إلى التصفيق مع بعض الرقصات الارتجالية وليدة اللحظة، أخيرا وصلوا حيث توجد السيارة المخصصة لهم ، جلست بالمقعد الخلفي، غير مستقرة على وضع ثابت، تتمايل وتدندن وتغنى أغنيات فرح، دقائق لم تتجاوز الخمس عشر حتى توقفت أمام المعرض، أبرزوا بطاقات الدخول لمراقبي أبواب الدخول، تركت يدى أبيها وأسرعت بالوقوف أمام أقرب مكان عرض، ما هذا البريق المصاحب للمعروض داخل الصندوق الزجاجي؟، محتوى الصندوق يشعرها أنه كائن حي من لحم ودم، الوجه يكاد ينطق، يخاطب معجبيه الهائمين إبهارا بما يرونه، ما أجمل الألوان وتناسقها، كل شيء اختير بكل الدقة والعناية، أخذت تلف وتدور حول كل صندوق عرض، كل فينة وأخرى تند منها آهات الإعجاب والدهشة، تنتقل من مكان إلى مكان آخر بخفه، كأنها تطير لا تمشى، شعور طاغ اجتاحها ، تشعر أن كل ما تراه يناديها، يحدثها يمد يده اليه، تسمع همسا يكرر كلمات العرافة، وجدت نفسها تسرع إلى أحد المشرفين، شاب حنطي البشرة، صاحب قوام ممشوق

منتصب، مرفوع الهامة وشعر مجعد متموج لامع، صاحب بسمه دائمة، سارت إليه تطلب السماح بأخذ صور فوتغرافية للمعروض، لمح لهفتها وشغفها داخل مقلتيها، أخبرها .

- للأسف ممنوع التصوير، معذرة يا آنسة.

كان يحدثها بذات لغتها وبلكنة أقرب للكنتها.

لمح إمارات الوجع ترتسم فوق محياها، وجد نفسه يقترب منها، وضع يده بنوع من الحذر على كتفها، حدثها.

- لا تنزعجي سوف أدبر لك بعض المطبوعات التي دوما نقدمها لكبار الشخصيات العامة وذات الحيثية المجتمعية، لا تقلقي بالغد سوف أكون قد دبرت الأمر، ها هي بطاقتي، تواجدي بالغد بالفترة المسائية التي تبدأ بالرابعة بعد الظهيرة.

أمسكت بالبطاقة اعتلت كل البهجة وجهها، وجدت نفسها بلا وعى وإرادة تندفع إليه، تضمه وتقبله على وجنتيه، هامسة.

- أشكرك سيدي المحترم.

وضعت البطاقة بحقيبتها دون أن تقرأ ما بها، أخذت تستكمل رحلتها، الأب والأم تركاها على حريتها، يتابعان المعرض بهدوء وأعينهم رقيب عليها، فجأة حدثت جلبة شديدة، وهرولات وفلاشات كاميرات متعددة، رجل يدخل محاطا

بجمع كبير على درجة كبيرة من الوجاهة **الاجتماعية**، مؤكد أنه من زبدة المجتمع، الرجل ممتلئ البنية بتناسق، وجه شبيه بالأوربيين ، يرتدى قبعة كبيرة وبالطو سميك، وجدت نفسها تقترب من هذا الحشد، الغريب أن لا أحد من أفراد الأمن المصاحبين له يقف حائلا بينها وبين **مرافقي** الرجل، يتوقف أمام أحد صناديق العرض، يشير إلى صاحب الصندوق، يبدأ حديثه بعبارة صاحبته طوال أعوام حياته، حسب ما علمت فيما بعد.

- أنا **ابن** لبلد لا يشبه أي بلد، بلد كل **شيء** به تاريخ، إن سرت بالشوارع بين الناس ترى على وجوههم حكايات وتاريخ، مصر التي بها نسبة كبيرة تتجاوز ثلاثة أرباع آثار العالم، هي حاليا تعلو طبقات عده من العوالم القديمة، كل طبقة تحمل تاريخا من الحياة بكل ما فيها، سياسية، **اجتماعية**، وكل **مناحي** الحياة، دراستها تشير إلى كيف كانت تسير الحياة، كيف كانت علاقة الحاكم بشعبه، كيف كانت علاقتهم الخارجية، كيف كان الطب، كيف كانت الزراعة وسبل المعيشة، ما هي طقوسهم الحياتية، أمور كثيرة وقفنا عليها ولكن غير المعلوم أكثر بكثير، لقد جبت بلدان العالم وشاركت بحفرياتهم ولكنى وهنا أنا لست منحازا **لبلدي** لم

أجد مثل آثارنا من كل الزوايا، لا تنظروا إلى الآثار على أنها منحوتات وجداريات فقط، لا يا سادة هي أرواح تحمل الكثير من الحكايا والأحداث عن الحقب الزمنية التي عاشتها، هي نقوش زمنية، صدقوني الأمر يحتاج مساحات زمنية كبيرة للحديث، أعدكم أنى سوف أعكف للكتابة عن كل هذا بالقريب العاجل، والآن دعونا نتحدث إلى الزوار ونشرح لهم بعض الشيء، هذا حقهم جاؤوا من بلدان شتي وأماكن بعيدة، وأن نوفيهم حقهم من توضيح الأمور.

أطلق بعدها ضحكة مجلجلة، سار محاطا بالرواد والإعلاميين، يتوقف أمام أحد صناديق العرض يتحدث بسلاسة عنه ويحكي بأسلوب مشوق، يحكى بلغات متعدة وكأنه من أبنائها، عيناه تتجولان متابعة للرواد وتعبيراتهم، لفت نظره صبية بريعان العمر، كلما وقفت أمام معروض تصدر عنها تمتمات، روعة، واوا، يا ربى، وتكاد ترقص، تابعها وهى تتنقل بمرح طفولييحيط بها ما يؤكد أنهم الأب والأم اللذان يصفقان لدهشتها والسعادة تكاد تقفز من العيون، وجد قدميه تسيران باتجاهها، وقف أمامها يتأمل قسماتها، بها ملامح تنتمى لملكات فرعونية، تجمع بين أوربيتها والشرق، سبحان الله للمرة الأولى يجد هذا بكل جولاته بالعالم، اقترب

اكثر ، أصبح بمحاذاتها، وضع يده بعفوية على كتفيها، احتواها ربت عليها مرات، انتفضت أحست برعشة تنتابها، رفعت عينيها لترى من جرؤ على هذا، الذهول أخذ منها كل مأخذ، يا رباه إنه الرجل المستحوذ على اهتمام الجميع، هدأت أحست كأنها تعرفه أو كانت تنتظره، رفعت يدها وربتت على يده المنبسطة على كتفها، بادرها بالسؤال.

- ما أسمك صغيرتي الجميلة

ارتفعت أهدابها وهمست بصوت خافت مرتعش.

- (لويزا) سيدي.
- اسم رائع لجمال رائع يجمع بين المشرق والمغرب، اسم أقرب إلى الأسماء الإسبانية،

دهشت للتعبير ولم تفهم المغزى، رفعت عينيها إليه مملوءة تساؤلا انتظارا للإيضاح

- بالفعل لك ملامح فرعونية إلى حد ما، فقط أخبريني صغيرتي، ما الذي يبهرك بما ترينه.
- كل شيء سيدي، هي ليست حجارة ومنحوتات مصنوعة بدقة، أو ألوان شديدة الوهج، شديدة التناسق، ألمح حين النظر إليها أنها تريد الحكي، أنها تناديني كأن

بيننا تعارف سابق، مبهورة للغاية، صعب ان أحدد أي جزء مبهر، مبهورة بكل شيء، حقا سيدي هل بلدكم رابضة على عصور شتى كما سمعت منكم.

-أكيد ما تم اكتشافه قطرة في محيط، واثق من خلال خبرتي الطويلة أن كل شبر ببلدي يحتوي آثارا وأسرارا، ألمح بعيونك بريق دهشة وفضول، سوف أحاول بعض الشيء لسبر أغوار ما بك.

التفت للخلف مشيرا إلى أحد مرافقيه الذي اقترب منه، همس له

- أحضر بعض المجلدات المعدة لكبار الشخصيات لهذه الصغيرة الحسناء فهي تستحقها لأن كيانها يهتز شغفا، وعلينا أن نضعها دوما بدائرة الشغف والدهشة.

بلا إرادة اندفعت إليه متعلقة بعنقه وقبلته على وجنتيه هامسة.

- لقد غمرتني بكرمك سيدي، عفوا لم أتشرف باسمك بعد، ثم هل تسمح لي وأبي وأمي- وأشارت إليهما- أن ندعوك للغداء معنا، لطفا وشرفا إن وافقت.

أمن والديها على الدعوة.

- يشرفني ابنتي

مد يده إلى جيب سترته مخرجا بطاقة تعريف له، منحها لها، أمسكت بها، قرأت

- البروفسير. (زاهر الحباك) عالم آثار، مصري، مكتوبة بلغات عدة.

رفعت رأسها واحنتها تحية له، ربت على كتفيها تناول يدها طبع قبلة حانية عليها.

- وعشت عمري معهم، لا يمكنني البعد عنهم كثيرا، الأجداد جسر بين الماضي والحاضر والمستقبل، زيارة التاريخ مهمة لاستهام الكثير من الدروس والمعرفة، مؤكد سوف نلتقي لأن بعيون هذه الصغيرة نداءات سوف نعرف سرها لاحقا، ولدى يقين أن لديها نداءات أيضا لا نعرف مكنونها، ابنتكم يا سادة سليلة تاريخ، أترككم بخير، تمتعي صغيرتي وتأملي كل شيء بدقة، أكثري من الزيارة، إلى لقاء.

- سير زاهر، ننتظرك غدا لتناول الغداء، نتمنى شرف هذا.

- أعدك إن كانت هناك فسحة من الوقت، إلى لقاء.

أخذت تتنقل بين أروقة المعرض، تتأمل وتمعن النظر إلى كل شيء، الأب والأم يستحثاها للعودة، يكفى هذا اليوم،

استجابت لهم على مضض، آخذة وعدا بأن لها مطلق الحرية بالحضور، سارت بينهما تقفز وكأنها ترقص، اندفعت إلى حمامها، فتحت المياه الدافئة، تداعب قطراتها، تدندن بأغنية مرحة بصوت عال تناهى إلى أسماع الأب والأم، الدهشة المصاحبة لسعادة غامرة ملأت أفئدتهم، سعادتهم مع سعادة الصغيرة، خرجت تقفز على أصابع قدميها، انسالَتْ لثما وعناقا لأبويها، طلبت الإسراع بطلب الطعام، لديها شعور جارف بالجوع، أكلت بشهية، تناولت بعض حبات الفراولة، قذفت بها إلى فمها متضاحكة، طلبت منهم أن تذهب إلى فراشها، ألقت بنفسها بشكل أوكروباتي على سريرها، نامت بعمق لم تعهده من قبل، صحت مبتهجة متوردة الوجنتين، أخذت حماما دافئا سريعا، نوَتْ أمرا ان تعاود الذهاب للمعرض لوحدها، تناولت لقيمات سريعة كأنها بحالة هرولة، قبلتهما مرات، الدهشة تعلو الوجوه، التساؤلات تطل من العيون، أخبرتهم أنها بالطريق للمعرض ستدخل ببطاقة دكتور زاهر، سمعت طرق الباب، أسرعت لترى من الطارق، أحد العاملين بالفندق وبجواره آخر يحمل صندوقا مغلف بشكل رائع، خاطبها،

- هذا من عند دكتور زاهر ويبلغك تحياته

مد إليها الصندوق، حملته فاغرة فاها، كان ثقيلا لحد كبير حتى أنها كادت أن تقع به، أسرع المندوب بحمله عنها، أشارت له لوضعه على منضدة مجاورة لمائدة الطعام، شكرته وطالبته أن ينتظرها لحظات لتذهب معه للمعرض، ولكنها عادت إليه لترجئ الذهاب لوقت آخر، الفضول لفض محتويات الصندوق هو ما دفعها لهذا، يحدث هذا تحت الحصار دهشة والديها، أخذت تفتح الصندوق، تخرج محتوياته مجلدات فاخرة ، طباعة مصقولة، علم الحفريات، علم المصريات، الأزياء التصوير الفرعوني، طقوس الحياة، الدين، الفن والكثير الذى يغطى كل زوايا هذا العالم، في نهاية الصندوق وجدت قلادة بها نقش رائع أزرق. وبجواره بطاقة مكتوب عليها، إهداء لجميلتي ربما تكون تميمة حظ.

أذهلتها التميمة بنقوشها الدقيقة، ببريقها تشعرك كأن بها إضاءات من كل جزء بها، طلبت من الأم مساعدتها لوضعها حول عنقها، أسرعت إلى المرآة تتأمل التميمة، تلف وتدور لتراها من كل الزوايا، كل لحظة تصيح فرحا، إحساس لم تعهده ولم تجد له تفسيرا، أن روحا أخرى سكنتها، طنت كلمات العرافة آذانها هرولت إلى حجرتها راغبة باسترخاء وضم شعورها إلى صدرها.

..3..

العَيْشُ بَيْنَ الحِكاياتِ

منذ صغره حتى وهو لا يدرك ولا يعي ما حوله كان دائم الجلوس على حجر أمه وهى تتوسط نساء القرية، وهنّ يرتدين ملابس بألوان قريبة الشبه من بعضها، من الممكن أن نقول أنها زي موحد، وغطاء الرأس المعصوب على الرؤوس بشكل موحد أيضا، وكأن هذا قانون تم سنه لهم، الأم ذات الطول الفارع والفريد بين أهل القرية، والجسد الممتلئ بتناسق، لا انبعاجات أو سمنة مفرطة، بخمرية بشرتها والفم الضحوك والباسم على الدوام، والقرط المعلق بأنفها يضيف لها جمالا، وغطاء الرأس الممتلئ بالترتر يتراقص على كامل ثيابها، تجلس حينما تميل الشمس للعودة إلى معقلها، لمبتان من نمرة عشرة ، كل منهما تأخذ جانبا يتيح الفرصة للإضاءة بشكل كبير، يسود بينهم حديث مرتفع حينا ومصاحبا بضحكات تجلجل، وهمسا كثيرا مع الهمس واللمز لم يفهم سر (سرّها) وكتم الضحكات في أكمامهن،

يحكين عن أبى القمصان ، الرجل الذى يستأجر للقتل أو للأخذ بحق أحد من آخر عن طريق الضرب المبرح وأنه كان يصيب أي هدف مرصود دقّة، يحكين عن بخاتى الرجل الذى يجر ساقية لساعات أو ينزل الترعة لانتشال جاموسة أو بقرة وقعت ولا تستطيع الخروج، حكايا كثيرة كان يندهش لها ويتخيلها أثناء نومه، عندما بدأ يعي ويدرك تأكد أن غالبية الحكايا غير واقعية وأنها مجرد تخيلات واختراعات منهن، بحث عن أبي القمصان وجده رجلا طاعنا بالسن وهيكله الجسدي لا يوحى بما قيل عنه، وبحث عن بخاتى وجده رجلا تحتله كل أمراض الزمن، ومن غير المتصور أن يكون كما حكوا، أدرك أننا كبشر نعشق الحكي المضفر بخيال واسع خصب، ربما لأن الخيال هو بهارات الواقع، وكثيرا ما رأى بعض الأيدي تداعب سيقان أو وجنات البعض، لم يفهم بالمرحلة العمرية الصغيرة الكثير من أحاديثهن، الشيء الذى أيقن أنهن حينما يعرجن بالحديث عنه، أنه يتناول أمورا لا يحق له سماعها ومعرفتها، سمع الحكاية مئات المرات، حكوا أنه ولد بعد عدد من الإخوة والأخوات يذهبون إلى رب العالمين قبل بلغوهم عمر الشهر السادس من العمر، والتساؤل الذى ساد حينها، لماذا تحديدا

هذا التوقيت الواحد؟، المهم ولد هو وسط فرحة محاطة بالخوف، ومصاحبة بالدعوات من الأهل والجيران وكل من يعرفونهم بأن يتخطى هذا التوقيت وأن يعبر إلى الحياة ويستمر ملازما لها، أسموه فريد ، التفسير أنه كان فريد لحظة مولده، لم يبك مثل كل الأطفال، يحكون ويحكين أنه خرج للحياة ضحوكا، كان الابن الذى طال انتظاره، أضاف للبيت بهجة رغم وجود أختين له، هذه الجلسات كانت يومية، تطول أيام الصيف، وتنتهى سريعا أيام الشتوية وإن كن وجدن حلا للهروب من البرد والمطر، أن تضمهن حجرة الخبيز، ذات الحرارة التي تشع الدفء في كل المسام، إضافة إلى دفء الحكايات، هذه العادة تستمر أيام غياب الأب بعمله. الأب يعمل مع البعثات التي تقوم بالحفر للبحث عن الآثار، أحيانا يكون حفارا، أحيانا خفيرا، أحيانا دليلا إلى أماكن يتوقع وجود بها كنوز أثرية، كان أبا هادئا مرنا، لا يثير أي مشاكل، عرف هذا من خلال الجلسات التي تقام منذ عودته حين أوبته، دوما يجلس بالمنتصف يحيط به الحضور على شكل دائرة بها فتحة صغيرة تتيح الفرصة لدخول الأم بالشاي وأصناف أخرى، وجمرات النار التي تتأجج راقصة فوق الأرجيلة التي تمرر بين الكل، الدخان يظلل الجلسة، يحكى

لهم عن أسبوع غيابة، عن البعثات وعن اكتشاف العديد من الآثار، وعن أيامهم ولياليهم كيف تمضى، الخواجات كما كان يسميهم أولاد حظ أيضا ولكن بطريقتهم، تجدهم يشعلون النيران، يلتفون حولها ينالون دفئها، يتعاطون مشروبات أعرف أنها منكر، الغريب أنهم يشربونها كأنهم يتناولون الماء، تتورد وجنتاهم بتأثير الشراب والنيران، أحيانا تأخذهم لحظات سلطنة، تجدهم ينهضون وتتماسك أيديهم رجالا ونساء، يرقصون رقصات أقرب لطقوس الزار وحلقات الذكر عندنا، تعلو أصواتهم بالغناء وبالصياح، عندما يأخذ منهم التعب، يرتمون على الرمال، يذهبون بسبات عميق لا حراك بهم، أحيانا يخيل إلينا أنهم أموات، يطول الوقت وهم نيام، الغريب أن تجدهم ينهضون، يطلبون الشواء هم مدمنو شواء الجديان والماعز الصغيرة، يعشقون العمل منضبطين، مؤكد ليس الجميع، هناك البعض من يتسلل إلى مكان الحفريات، يختفى بعض الوقت الطويل، عندما يتم سؤاله يجيب أنه كان يقضى حاجته، والحقيقة أنه كان يمرر إحدى قطع الآثار إلى البعض الذى يجيء متسربلا بالظلام، لا نلمحهم، ربما نلمح ظلالهم أشبه بالخيالات، ما يتم اكتشافه قطرة في محيط، عمليات القرصنة والسطو لا تنتهى، تطول

جلساتهم حتى تتسلل تباشير الصباح وارتفاع أصوات الأذان من كل مساجد البلدة، ينهضون آخذين الطريق للصلاة، الصغير يربض بركن بعيد يسمع الحكايات، عاش بينها وفهم الكثير من أمور الحياة، وغمض عليه البعض منها، عندما بلغ التاسعة من العمر أصر على مصاحبة الأب، الرفض البات كان رد الفعل، بكى كثيرا، جادل الأب الذى قال قولا واحدا.

- فرصتك الوحيدة لكي تأتى معي هي إجازات المدارس، أريدك ناجحا متميزا، يكون لك غدا مشرق، لا تعش مثلما عشت.

أجلسه يومها على حجره رغم أنه صار صاحب طول، أخذ يحدثه بعقلانية حتى أقنعه، أوفى بوعده لأبيه تفوق طوال دراسته إلى جانب سلوكه المنضبط، حتى أن مدرسيه كانوا دوما يوجهون حديثهم إلى تلاميذهم بالقول.

- انظروا إلى وحيد وتفوقه وخلقه، حاولوا أن تكونوا قريبين منه إن أردتم ان تستمتعوا ويكون لكم ارتباط بالتميز.

الأب كان متفاخرا به بجلساته حتى وهو بالعمل يحكى للعمال وإن أتيحت الفرصة يحكى للقائمين على شئون الموقع

مصريين وأجانب. بدأ يأخذه يوما بعد يوم إلى عمله، يجلسه بالقرب من مكان ظليل، كان الصغير يجلس هادئا يجول بعينيه اللتين تتحولان إلى دائرة ضوء أشبه بعدسه تدور بكل الزوايا، يتأمل ويشاهد كل خطوات العمل، غناء العمال والصيحات التي تنطلق إلى عنان السماء حين العثور على خبيئة أثرية، يشاهد رقصاتهم وغنائهم حال انصهار الجميع في بوتقة الفرح بالإنجاز، يرى لحظات الإحباط حين يرون أن الحفر كان بمكان ليس به هدفهم المنشود، يرمون أنفسهم على الرمال بشكل عشوائي، يخفون وجوههم تصدر عنهم آهات وأنات الفشل، شاهد ليالي السمر الخاصة بهم، كل يعبر بطبيعته وسجيته، تكرار هذا أعطاه فرصة لتعلم مفردات بعض اللغات، أحب اللغات بحث بجدية عن من يعلمه أكثر من لغة خارج إطار المدرسة، انغمس تماما بالأمر، تعلم أي لغة زيادة لسعه الأفق ومعرفة ثقافات أهلها ومنهجهم الحياتي، الخطوات تتسع وتهرع به إلى المزيد من التعلم، ورغم وصوله لمراحل عمرية أكبر لم يتخل أو يبتعد مطلقا عن مدار الحكايات، كبر وكبر معه الحلم، سارع بالالتحاق بكلية الآثار رغم تفوقه الذى أتاح له أكثر من فرصة لكليات القمة، هو يرى نفسه ابن لهذا العالم، لا يجب ان ينفصل عنه،

سنوات الدراسة تهرول وهو يحقق نبوغا كبيرا، هو مارس العمل الأثري منذ الصغر، كانت المعلومات النظرية لدية عملية بالواقع مما سهل من تفوقه ونبوغه، كان الأول على دفعته طوال سنوات الدراسة، عرض عليه أن يكون معيدا ويتدرج بمناصب أكبر، رفض بشدة، توسط له الأب لدى مسئولين يقومون بزيارات للمواقع الأثرية للعمل بالوزارة مع تعهده استكمال مشوار العلم، طلب أن يلتحق بقسم التفتيش بالوزارة حتى تتاح له الفرصة للتجول بالمواقع الأثرية، كان كل يوم يمر يزداد ولعا بمشاهداته، اختير مرات عديدة لمصاحبة معارض دولية للآثار، دوما ينال الثناء من رؤسائه وكل من يتعامل معه، عندما يتحدد مكان وزمان ومكان كان الاسم الأول هو، فريد جلال الهميلى، أو كما كانوا يسمونه رجل الحكايات، هو إعتاد الحكي عن المعروضات بكل استفاضة، بحب وعشق وولع، حكاياه كانت سببا أساسيا لبحث رواد المعارض عنه لما سمعوه من أصدقاء وصديقات لهم، الحكايا ربط أو بالأدق جسر متين بين الماضي واليوم والغد.

..4..

حَدِيْثُ الشَّغَف

عند الرابعة بعد الظهيرة أتاهم رنين الهاتف، أسرع الأب إليه وجد من ينبئه بوجود الدكتور زاهر الحباك بالبهو انتظارا لهم، أجابه بأنهم خلال دقائق سوف يحضرون، أخبرهم بالمهاتفة، أسرعوا بالنزول، الدكتور جالسا يجاوره شابا يتجاذبان أطراف الحديث، منهمكان تماما حتى أنهما لم يتنبها لقدومهم، أفاقا على صوت دكتور (تشارلز) يرحب بهم.

- أهلا بكم دكتور، شكرا لتلبية طلبنا وطلب ابنتنا لويزا، تفضلا

مدت الأم يدها للمصافحة، الدكتور زاهر قبل يدها، التفت إلى لويزا، وضع يده على كتفيها، همس وهو يرنوا إلى قسماتها.

- من أجل (لويزا) نجيء، هي بها جاذبية مثل جاذبية الآثار التي أتعامل معها على كونها أسرتي، الأب والأم، والأخ، والأخت، الصديق والصديقة، الحبيبة، الزوجة، كل شيء، أشعر من لحظة وقوع بصري عليها، أنها سليلة ملوك الأسر الفرعونية، فكيف لا أهرول ملبيا دعوتها، أها آسف نسيت أن أعرفكم بتلميذي النجيب وابني النابه، (فريد جلال الهميلي)، منذ التقيت به وعرفت عنه جديته ودقته وبحثه الدائم عن المعلومة، صار ملازما دائما لي، هو يذكرني ببداياتي.

حينما رفعت رأسها دهشت، إنه نفس الشاب الودود الباسم الذي تعامل معها بكياسة، الذي وعدها بمطبوعات، لمحو الدهشة على سلامتها، أسرع مخاطبا لها.

- لا تندهشي، انا فعليا ملتصق بالكامل بعالم الدكتور وعالم المصريات، ولمحت بعينيك شغفا بما ترين، فكان واجبا على أن أزيد من شغفك ومن حاجتك للمعرفة، ولبينا وعدنا لك بما أرسلناه من مطبوعات ونشرات سوف تطلعك وتجيبك على الكثير من تساؤلاتك، وعندما أخبرني الدكتور بدعوتك له، وبفراسته المعهودة

وقدرته على قراءة النفس لمح بعيوني رغبتي بمصاحبته، أعتذر إن جئت بلا دعوة.

قاطعه الدكتور تشارلز.

- لا تقل هذا، على الرحب والسعه، أنت والدكتور مكرمين منا ولنا الشرف.

أفسح الطريق مشيرا إليهم بالسير إلى مائدة الطعام الذي سبق وطلب من المطعم إعدادها، جلسوا بأحد الصالونات المنتشرة ببهو الفندق، بركن قصي، يتناولون الطعام وسط جو من الود. بدأ الحديث دكتور زاهي

- بداية نشكركم على هذه الحفاوة التي أشعرتنا بأن بيننا تعارف سابق، مؤكد سوف تجمعنا لقاءات أخرى متعددة، ثم لنشبع شغف ابنتنا وأنتم أيضا حول الآثار وعالمها المطلسم شديد الغرابة، بداية أقول لكم أن مصرنا كل مساحة بها كنوزا أثرية مملوءة، وما ترونه بالمعرض مجرد جزء صغير جدا جدا من المكتشف، كل جزء ينم عن تاريخ كبير، ما شاهدتمونه لا يغنى عن رؤية واقعية ، الواقعية تجعلك قريبا من الحدث، تتمعن بالنقوش والكتابات، فن النحت، فن التعبير، شيء

لا بد أن يذكر أننا شعب يعيش التاريخ بكل لحظاته، نعشق الحكايات نتنسم منها رائحة الأجداد، وما تركوه لنا من ميراث من العلم ومن الحياة وعظاتها، دوما أقول بكل اللقاءات: إننا شعب رضع مع حليب الأمهات الحكايات والتاريخ، التاريخ هو مسار مهم يقودنا إلى بصيرة شديدة تتيح لنا أن نقف على أرض شديدة الصلابة والقوة، هو أساس قوى لا يهتز مهما مرت الأعوام، وللأسف تعرضت آثارنا على مدار حقبات زمنية كبيرة إلى نهب وسرقة، من أفراد ومن دول، ما في مكان بالعالم إلا ويوجد به آثار لنا، نعكف حاليا على استردادها، لكل قطعة حكاية وأسرار توصلنا للبعض والبعض الآخر مازال مطلبنا، لنعترف أننا على ثقة أن هناك الملايين من الآثار المصرية مازال بقصور أباطرة العالم وأصحاب السلطة والمكانة، ولدى الكثير من تجار الآثار الذين ينتظرون الأوقات المناسبة وإظهارها بغية الحصول على مقابل أكبر، مازال العالم يقف مذهولا كيف بنيت الاهرامات على هذا الشكل الذى يدل على علم الهندسة، وكيف انتبهوا إلى أن تعامد الشمس على وجه رمسيس الثاني بهذا المكان تحديدا

وبهذه الزاوية وبذات التوقيت الزمني، عندما تتاح الفرصة لكم للمشاهدة سوف ترون كل ألوان العلوم والفنون مكتوبة بدقة على كل الجدران، باختصار سوف اقول لكم ما قاله الشاعر المصري (حافظ ابراهيم):

وَقَفَ الخَلقُ يَنظُرونَ جَميعاً كَيفَ أَبني قَواعِدَ المَجدِ وَحدي

وَبُناةُ الأَهرامِ في سالِفِ الدَهرِ كَفَوني الكَلامَ عِندَ التَحَدّي

هل تعلمون أن هناك أفرادا ودولا تؤمن بتقديم القرابين للوصول إلى أماكن الآثار، قرابين تصل إلى حد تقديم الأطفال الصغار لأجل هذا الأمر، جهل ما بعده جهل، هناك الكثير مما يقال في هذا الشأن، وأظن يا دكتور من خلال دراستك وعملك أنك تستطيع تحليل الشخصية المصرية القديمة تحليلا يخبرنا عن كل أمورهم الحياتية، مؤكد قريب سوف نجدكم بمصر.

عقب الدكتور تشارلز.

- في الحقيقة أثرتم بداخلنا كل نوازع الدهشة والفضول، ومما سمعت أستشف سيكولوجية هذا الشعب، شعب يعشق تراث الأسلاف، شعب دوما باحثا عن إضافات جديدة لوطنه، أجزم أنه شعب عاطفى لحد كبير، متفاعل مع أحداث وطنه وزمنه، تشوقنا لرؤية هذا على أرض الواقع، نحن سعداء بهذا التعارف الذي دبرته الأقدار.

التفت دكتور زاهر تجاه لويزا موجها لها الحديث.

- لديك ما يجعلك تعملين العقل وتكونين بحالة شغف دائم محاولة الوصول لمعرفة هذا العالم، غوصي بين الكتب، تخيلي الكلمات مشاهد وصور، بعدها حددي خطوتك، حددي ماذا تريدين حينها أنا شخصيا على قدر كبير من الثقة من نبوغك فيما تختارين، نحن بانتظارك.

استدار موجها الحديث إلى دكتور(تشارلز)

- انتبه انت لديك مشروع نبوغ، اهتم به بفكرك وبعلمك، سوف ننصرف ولكن على أمل لقاءات متتالية، اجعلنا دوما على مقربة منكم،

تبادلا التحايا والوداع المصحوب بود تنطق به العيون.

..5..

مَتاهَةُ الأفْكَار

على مدار الأيام التالية، تستيقظ من نومها المتقطع، ليلها كله سباحة بعالم الآثار، تستعيد نبوءة العرافة وكلماتها التي أصبحت قرينة مسامعها دوما، تسرع لأخذ حمام دافئ، تخرج إلى الإفطار، تتناول لقيمات سريعة، تسرع بتقبيل الأب والأم، يداعبانها بمجنونة الفراعنة، ترتدى ثيابا أشبه بالزي الرياضي، تركض درجات سلم الفندق لا تطيق انتظار المصعد لدقائق، تطلق صفيرا منغما، تركض بالشوارع تقفز

قفزا، هي بطبيعتها ترحب بالجري ببواكير الصباح، اعتادت على هذا بحديقة منزلهم الواقع بإحدى ضواحي لندن التي تكاد تكون على مقربة من منطقة ريفية لحد كبير، تقف أمام مدخل المعرض تلتقط أنفاسها، تهرول داخلة كأنها بطريقها لحفل بهيج به كل ألوان البهجة، تذهب إلى حيث فريد، تلقى إليه بتحية اليوم، تكاد تندفع إليه تقبله، كم حلمت بهذا، تلمح بعيونه إيثارا لها حينما تعلو الإشراقات وجهه، الاهتمام يبدو من ابتسامته القصيرة التي تزين محيط وجهه، الاهتمام كما عرفت فيما بعد أنه العتبة الأولى للحب والجنون، الشعوب العظيمة تعرف كيفية الوصول لهما، تقف أمام أية قطعة داخل صندوقها الزجاجي، تتأمل بتمعن شديد، تلف وتدور كثيرا حول الصندوق الزجاجي، تشعر بأن هناك شيئا ما يخترقها، تكاد تسمع نداءات منهم، تطن برأسها كلمات العرافة، تمسكي بحلمك لكل منا أحلامه التي تناديك، علينا أن نتمسك بالسعادة إن رغبنا بالوصول للسعادة والمعرفة، الحلم نداء ودعوة للمعرفة، أحلم وتمسك بحلمك تملك أسباب السعادة والمعرفة بوقت واحد، تتفرس بكل محتوى المعروض، الدهشة تلازمها بشكل دائم، مساحات التساؤلات تزداد، كيف تم صنع هذا بالدقة المتناهية، كيف توصلوا

لتناسق الألوان وتوافقها، الألوان بها سيميترية كبيرة، كيف جعلوا منها ما يشبه الحقيقة، الملابس تكاد تكون مصنوعة من لحظات، كيف وكيف، كان فريد يلمح التساؤلات على صفحة وجهها، يسرع إليها يضم كفها الصغيرة (الكف مؤنثة) بين يديه، يربت عليها بهدوء، يرسل نظراته إليها، هو يرى بها ملامح أميرات وملكات الفراعنة، يهدئ من روعها قائلا.

- لا تدعى نفسك نهبا لصراع وتلاطم الأفكار داخلك ، ما ترينه نقطة من محيط، خذي الأمر تدريجيا، يشرح لها بعض الأمور عن محتوى الصناديق الزجاجية متخيلا أنه يهدئ من روع افكارها، ولكنه يكتشف أنه ينزلق بها إلى متاهة كبيرة من الأفكار، يحكى لها عن نفرتيتي، عن ايزيس وأوزوريس وقصتهما الأسطورية، يحكى عن حتشبسوت ، عن أحمس وتحتمس، حول حور محب، عن آتون، حكايات كثيرة، يرى وهج الشغف يزداد بعيونها، باليوم الأخير بالمعرض ذرفت الدموع بغزارة ، أصرت على التجوال معه بلا أي تخطيط سابق بكل الشوارع المحيطة بالمعرض، كانت ممسكة بيده وتتقافز ركضا، كانت تنظر بتمعن إلى كل ما يمران به، وكأنها تنقش الأمكنة داخلها لتكون زادا لأيام قادمة لا تدرى

مداها، وهل ممكن ان تلتقى به ثانية وكيف؟، لمح تساؤلها من قسماتها، مال عليها.

- لدى يقين أننا سنلتقي، اطمئني سأبذل كل الجهد حتى أكون متواجدا لأي معرض يقام بلندن، سوف نتواصل، ربت على يدها مرات، بادلته الربت، عانقته وقبلت وجنتيه، انتابته رعشات متعددة اللغات والمعان، ظلا يسيران حتى أنهما لم يشعرا بالوقت، نال منهما التعب، جلسا على أحد الأرصفة، ينظران لبعض دون حديث، العيون بليغة اللغة تعبيراتها أكبر من أي حديث، نهض أخذ يدها، مال عليها قبل راحة يدها، وجه نظراته إليها قائلا.

- أغادر وتغادرين، كل يعود إلى جذوره، ولكنى أعترف أن هذه المرة المغادرة بها وجع، ولكن ما يخفف من ألمها هو كم الذكريات الحلوة التي سكنتنا، كل شيء عزيزتي بالعالم قابل للتحنيط إلا الذكريات دوما ومهما مر بها من أزمان تظل طازجة حية نسترجعها دوما استدرارا لحلاوتها أو وجعها، أحيانا يكون الوجع مطلب مهم لعلاج بعض الشروخ الحياتية.

..6..

حَكَاوي المَصاطِب

..بقرية الغربي قمولا مركز القرنة بالأقصر، وببيت مثل كل بيوتها، البيت المكون من طابق واحد تحيط به بعض الأشجار الباسقة توفر بعض الظل، بيت (جلال الهميلي)، بمدخله مصطبتان من الاسمنت المدهون بدهانات ملونة، واحدة على اليمين خصصها لجلسته مع الرجال، وأخرى يسارا مخصصة للنساء، هو عادل بكل شيء، يجلس ويحيط به بعض الأحبة، هم دوما بشوق لحكاويه المثيرة والتي لا تنتهى، جديدة دوما، بجوار الجلسة، وعاء فخاري مشتعل دائما يعتليه براد الشاي الذى لا يفارق مكانة طول الجلسة الا عند انتهاء الجلسة، وأيضا بعض الفاكهة والتمور والأرجيلة التي تتنقل من واحد لآخر، وزوجته بخيتة صابر أبي الرجال، تتوسط النسوة، الثياب متشابهة وكأن من قام بصناعتها ليس عنده إلا هذا النموذج، يحكى جلال عن رحلته مع البعثات الأثرية، حكاها مئات بل آلاف المرات ولكنهم

أبدأ لم يملوا منها ، لكنه كان يضيف اليها الجديد، يحكى لهم عن بدايات ولعه وعشقه لعالم الآثار أو عالم المساخيط كما يقولون عنها دائما، لم يجهد نفسه أبدا لمعرفة سبب هذه التسميه، يبدأ الحكي الذى سمعوه مئات المرات ولكنهم لم ولن يملوه لأنه يضيف إليه كل مرة ما يجعل له نكهة متجددة، مضفرا ببعض النكات التي قد تكون فجه أحيانا، الكل يجلس متربعا متسع الحدقات، رافعا أهدافه، وفاغرا فاه على سعتها، قبل أن ينطق بكلمة يمرر عيناه على كل الوجوه وكأنه يتحقق من كامل انتباه حواسهم.

- على حسب ما سمعت من أبى أننا لسنا من الصعيد وإن كنا قد أصبحنا صعايدة من قمة رؤوسنا حتى آخر جزء من أجسادنا ، قال الوالد رحمة الله عليه، إننا من عزبة أتذكر اسمها، عزبة السبيل إحدى عزب القرى التابعة لطنطا، كان أبى يعمل مع مقاول أنفار ، رجل يقوم بجلب العمال من كل القرى التي تجمعه علاقات بأهلها، يوزعهم على الأعمال المتعددة، أعمال زراعة على اختلاف نوعياتها، مقاولات من هدم وبناء وأعمال لاحقة بها، حتى أعمال تنظيف البيوت والحظائر، المهم الوالد مع توالى الأعوام وأسلوبه البسيط حدث بينه وبين المقاول نوعا من التقارب، الثقة متبادلة

بينهم، جعل من أبى مساعدا له ومشرفا على الأعمال، استمر الأمر على هذا الحال سنوات وسنوات يتنقلان من مكان إلى مكان على طريقة بلاد تشيل وبلاد تحط، كم حكى لنا عن حصاد الكتان بقرى مجاورة وقريبة من العزبة، على ما أتذكر، شبرا ملس، شبرا بابل وبلاد أخرى، وتجول بقرى تتبع بسيون تزرع الياسمين، كلها أسماء لبلاد لا أعرفها ،المرة الأولى التي عرفت عزبتنا حينما أخذني أبى وهو يكاد يهرول إلى العزبة حين علم بمرض جدى، كنت بحدود العاشرة من العمر، وصلنا قرابة مغيب الشمس، ولكن لحظتها أيقنت بوصولنا بعد وفاة الجد من لحظات، إنهار أبى وأخذ بالبكاء والعويل واللطم على وجهه، لم أر جدى على أرض الواقع مطلقا، كل ما أعرفه صورته التي ظلت معلقة بغرفة أبى إلى وقت قريب من وفاته، بعد هذا أخذنا مرات قليلة، زيارات خاطفة ، مجرد يوم أو يومين فقط، مازلت أتذكر لعبنا انا وأخوتي البنات بالمساحة الواسعة أمام منزل الجد، لعبنا مع الكثير من أطفال يقاربوننا عمرا أو أكبر قليلا، قيل لنا أن بعضهم أبناء عمومتنا، لا أعرف عنهم شيء ، وأظنهم نفس الحال ، ولكنى أتوقع أن يجيئ يومآ، أجد فيه من يربت على كتفي، يمعن النظر طويلا إلى، يرتمى بين

أحضاني، يهمس برفق، أنا ابن عمك، ليس هذا ببعيد الحدوث، المهم التقارب والثقة تزداد، حتى كان يوم جلسنا سويا للغذاء أثناء يوم عمل، أخبره المقاول أن هناك عرضا جاءت من صديق عزيز يريده أن يعمل معه بأعمال الحفر مع البعثات التي تأتى للبحث عن الآثار بصعيد مصر وأن هذا العمل له مقابل كبير، وهو من ناحيته لن يجد مثله لأنه وثق به ويعرف مدى إخلاصه وأمانته، ولن يكون مجرد عامل، بل ساعد أيمن له، إن وافق سوف يقومون بجلب العمال الأصحاء الأقوياء لان هذا عمل شاق، طلب الأب مهلة يومين لتدبر الأمر، وافقه، كان أبى لم يتزوج بعد، الفكر أخذه لأيام، ولما لم يصل لقرار، هرول إلى والده، جلس إليه ، عرض الأمر وهو يتخيل أن الأب سيرفض، فوجئ به يقول:

- الله يقول لا بد من السعي للرزق، هم يقولون اطلبوا العلم لو بالصين، وانا أقول لك اطلب الرزق حيثما يكون، لا تتأخر عن تلبية النداء، كل أمور الحياة نداءات واحدة، فلا تضيعها، فقط اجتهد وكن أمينا ولا تنس ربك ودينك، يفتح لك الله أبواب الرزق بلا حساب، على بركة الله.

أسرع إلى المقاول ، أعلنه بموافقته، على مدار أيام أخذا بالمفاضلة بين العديد من الرجال، اختار عشرة رجال، وبدأت الرحلة، انتهى المطاف إلى هنا، كان أمينا بعمله، سريع الفهم لكل ما يدور من عمل، عمل الحفريات مع البعثات المصرية والأجنبية، استطاع بفترة وجيزة اكتساب ثقة أصحاب القرار، بعد فترة وجدوا به قدرة على تحديد أماكن للحفر، يتوقع بها وجود دفائن أثرية، لم يخب حدسه إلا قليلا، كان مقربا من رجل يعمل معه يكبره بعدد كبير من الأعوام، الرجل تعامل مع أبى كأنه أب له، كان جدى والد أمي، أبو الرجال العدوى، كان يتناولان الطعام سويا، كان يستضيفه ببيته كثيرا، أبى كل فترة كان يغادر عائدا إلى العزبة، يرمى بمتحصلاته عن فترة غيابة بحجر أبية، يتزود بمخزون أيام غياب قادمة لا يدرى كم هي بين أحضان ابيه وأمه وإخوته، يعود محملا بعدد من السلال مليئة بالطعام ما يكفى أياما طويلة، يذهب بها على الفور إلى منزل جدى فيما بعد، يقسم آلاف المرات أنه ان لم يأخذها جدى سيقذف بها إلى الترعة، يقبل جدى صاغرا، هو عرف عنه أنه عنيد، صلب المراس، مع توالى الزيارات والسهرات والفضفضة، أعجب بابنته، روح، هذا كان اسم أمي، قبل أن يطلبها

للزواج، غادر إلى العزبة كما سمعت منهم عشرات المرات، جلس إلى أبيه وأمه، حكى لهم عن جدى، وعن شهامته، وعن شعوره أنه أب آخر له.

صمت الجد طويلا وشاركته الجدة نفس الصمت، مد الجد يده، ضغط عليها بشده حتى أنه توجع قليلا، صوب نظره إليه بحده، طال الأمر بعض الشيء، زاد من ضغطه على يده، تكلم.

- ابنى ، تعلمت وأيقنت طوال حياتي بقدرية كل شيء، وأن علينا السير وفق أقدارنا التي خطط لها رب العباد، رغم علمي أن موافقتي سيكون ثمنها باهظا على أنا وأمك، ولكنى أعود وأقول واكرر، أنها هي خطى كتبت علينا، وعلينا أن نمشيها، على بركة الله، توكل على الله، وأخذه بحضنه، ممررا يده على رأسه ، وأخذ يتلو قرأنا وبعضا مما يحفظه من أوراد ذكر، وقبله مرات، بعدها دفع به إلى حضن أمه، التي زادت من احتضانه بقوة، أدهشه عنفوانها، فكانت ضعيفة البنية، وبكت، نهض الجد، دخل إلى حجرته ، غاب بعض الوقت، عاد حاملا بعض الأوراق النقدية، قدمها له.

هذه هدية زواجك، فقط لا تغب طويلا، ولا تنس جذورك، لا تجعل من الغربة سجنا أبديا لك، بارك الله فيك،

نهض محتويا الأب والأم بين ذراعيه، يقبلهم بشغف، بشوق، والدموع شاهدة على هذا.

عاد إلى عمله، طلبها للزواج، أعلن أبوها بحديثه مع الأب والأم، مما زاد من تقديره له، موافقة الأبوين تعطي الإنسان ثقة ويقين بأن البركة تسكن جوانبه.

تزوجها، على مدار الخمس السنوات الأولى حملت عديد المرات، ولكن لمشيئة الله لم يكتمل لها حمل، كلما أجهضت تظل رفيقة الحزن لأيام طويلة، هو كان مؤمنا، يحدثها أن كل هذا خيرا، بعدها ولدت أنا، حسبما كان يحكى لي وأنا بحجره، أن مولدي، كان فأل خير له، تعدد طلبه للعمل من كثير من البعثات، بل كانوا يتنافسون عليه، وأن وجهي دوما كان ضحوك، أنجبا فيما بعد، أختيَّ (حفصة وملكة)، (ملكة) على اسم جدتي لأبي، الغريب أن مقولة أن الزمن دوار وأن التاريخ يعيد نفسه صحيحة تماما، لأنى مررت بنفس ما حدث لأبي وأمي بشأن الإنجاب، كنت شبيها لهم، بخيتة أيضا على مدار خمس سنوات لم يكتمل لها حمل، حتى أتى فريد، ثم أختاه، روح وحياة، جلال أخذ منى غالبية الطباع، ولكنى دفعت به إلى طريق العلم، الحمد لله حقق حلمي وصار

مرموقا، يتوقف قليلا، يأخذ بعض الأنفاس من سيجارته، يقذف بها، يطلق ضحكة عالية، صاخبة .

- سامحوني، صدعتكم،

ثم يعاود الحديث عن رجال ونساء البعثات.

- هؤلاء أناس بهم تناقض كبير، للأمانة هم لديهم ضمير بإتقان العمل، يهتمون بالتفاصيل كبيرها وصغيرها، هم مثل بندول ساعة سويسرية لا تقدم ولا تؤخر مجرد ثانية واحدة، يشعرونك أنهم وآلات العمل المصاحبة لهم كيان واحد، ولكنهم بذات الوقت لا ينسون نزواتهم وشهواتهم وبذات الإتقان، ولا يتورعون عن الحصول عليها جهارا دون الاهتمام بالمحيطين بهم، ولا يهتمون بكونها بها الكثير من الخروج عن النص، تجد رجلا يندفع إلى امرأة لا علاقة له بها إلا كونها رفيقة عمل، يقبلها بشراهة، وربما أحيانا يضمها إليه ويسير بها إلى إحدى الأماكن المخصصة لراحتهم وإقامتهم، يغيبان لبعض الوقت، قد يقصر أو يطول، يخرجان بعدها، تجلجل ضحكاتهم، يتمايلان يمينا ويسارا، ولا مشكلة إن رأيتهم يصلحون شأن ثيابهم، وتعود الأمور وكأن شيئا لم يكن، وكأنهما لم يقترفا

إثما، كم تعرضنا لإغراءات نسائهن، ولكن الله يحفظ من يحفظه، كلمة من أبى مازالت ترن بداخلي كقرع الطويل، لا تفرط بآثار بلدك، الآثار عرض وشرف، كن حارسا وأمينا عليها، هذا ما نقلته حرفيا إلى ولدى، جلال، تتعالى ضحكاته، يشاركونه الضحكات، يحكون همومهم ومشكلاتهم، يفضفضون ويتشاركون بحلول تزيح بعضا من همومهم، يغادرون وقد ملأت السعادة أرديتهم، تسكنهم هدوءا وسكينة.

على الجانب الآخر، الجلسة النسائية، دائمة صاخبة بالقول والضحك، والهمز واللمز، والحديث المحوري عن علاقتهن الخاصة، تحكى دوما عن زواجها من جلال وكيف كانت حين زياراته لهم، تنظر إليه من أسفل غطاء رأسها والذى يخفى أيضا الكثير من ملامحها، كانت تلمح نداءات نبضه ورغبته، تحكى على أنه رجل مختلف عمن تسمع عنهم، رجل حنون، يشعر بدواخلها دون أن تنطق، تتكلم عن ولدها وكيف أنه من يومه صاحب شخصية، يصر على أهدافه، حين تتكلم عن رجلها وولدها تجد وجهها مضيئا وكأن الشمس قد تعامدت عليه، تكتفى المحيطات بها بالتبسم واتساع الحدقات، وقد يصل الأمر لبعض الصيحات الفرحة

التي لا تستمر طويلا، من أن تخرج من صدورهن حتى ترتد سريعا إلى حلوقهن، وقد تجلس بينهن بعض الفتيات المقبلات على زواج قريب، يقمن وتعريفهن بعديد من أمور الزواج، ونصائح إليهن كي تسير بهن مسيرة الحياة بهدوء، رغم أن بعض من يقمن بالنصح هو أحوج إلى العمل بنصائحهن، من السمات المميزة لشعوبنا العربية أننا كثيرو النصح للغير ولا ننصح أنفسنا بما ننصح به!، تنتهى الجلسة بقيام الرجال كل منهم تتشابك يده مع الآخر، يرقص رقصات نوبية، صعيدية، يغنين بعلو الصوت، النساء يشاهدن ويكتفين بالتصفيق على ذات إيقاع الرقص والغناء، وإن زاد بهم الأمر بعض الشيء، يهتززن ويتمايلن وهن جالسات.

..7..

خَلَجَاتُ إنْسَانٍ

عاد إلى أرض الوطن، مملوءا ببهجة تتصاعد مع خطواته بعمله وإثبات ذاته، ما زاد عليه هو تذكر أحداث المعرض وتعرفه بهذه الأسرة الانجليزية، لم تغب عن باله أي لحظة، أو كلمة من الأحاديث، ما إن وضع قدمه على أرض المطار، إلا وقد جثا على ركبتيه كما اعتاد دوما وعملا بوصية أبيه التي يكررها دوما.

- يا ابنى دوما استجب لنداءات بلدك، لا تتقاعس عن تلبية نداءها، لا تخجل إن جثوت وقبلت ترابها، ترابها به رائحة أجدادنا بذلوا كل الجهد، لتكون كما تراها، كل جيل عليه مسئولية إضافة جديدة لتكون مواكبة لأى مستحدثات ومتغيرات، وما أكثرها بهذا الزمن، ما إن يضع قدمه بعد كل عودة له من سفرياته التي تعددت من موقعه الوظيفي، دوما تطن بإذنيه عبارات والده، وهو يعتد دوما ويستعيد أقوال أبيه، فهو يراه حكيما، صاحب رؤية صائبة بنسبه كبيرة، هذه المرة هرول إلى سكنه، وضع حقائبه، أسرع لأخذ حمام دافئ، لم يذهب للنوم كما تعود، للمرة الأولى يخرج عن مساره الحياتي، أسرع بارتداء ثيابه، أخذ يقفز درجات سلم العقار، هو يقطن بالطابق الخامس المرتفع، يحب الأدوار

العليا، تشعره بنوع من الخصوصية غير المخترقة، كثيرا ما يقفز درجات السلم حال هبوطه، رغم توفر أكثر من مصعد كهربائي، أسرع إلى حيث ترك سيارته قبل سفره، دخلها أخذ يشغل محركها بعض الوقت الطويل لحد ما، هو تركها من أسبوعين أو أكثر، صحيح أنه أعطى نسخة من مفاتيحها إلى صديقه (لطيف) الذى يثق به كثيرا، ليقوم بتشغيلها بين الحين والآخر حتى لا تتعرض للأعطال. اسرع بقيادتها، أمامه مشوار سفر طويل، هو يشعر بحاجته الماسة إلى أبيه وأمه، ليلقى إلى صدورهم محتوى صدره ومكنونه، يريد أن يرتمى بين أحضان امه، الأم هي من تملك رادارا استشعاريا، يعرف ويقرأ ما هو مكتوم داخل الأبناء، الأم هي المرفأ الآمن للأسرة، هي الألوان المتناغمة للحياة، للمرة الأولى يشعر ان الطريق يطول ويطول، تنبس شفتاه رجاء لتنتهي الرحلة، بداخله الكثير والكثير، رفع صوت الكاسيت، الصوت العالي يشعره بأن هناك من يشعر به، بعد ساعات سفر لا يعرف عددها وصل إلى حيث منزلهم، طرق الباب، حتى طرقاته هذا اليوم كانت مختلفة، فتح الأب الباب، اعترته الدهشة، نظر اليه مدققا، لم يعتد من ولده تغيير برامجه وذويها، لم يمهله بالترحيب، سأله.

- ماذا بك، بك شيء يرهق فكرك، حتى طرقات الباب مغايرة، أخبرنا ما بك، ثم ليس من عاداتك ان تعود الينا بعد وصولك من السفر، كنت ترتاح يوم أو أكثر ثم تأتينا، ما بك، انطق، قاطعته بخيتة.

- ما بك يا أبو فريد، الابن حاضر من سفر طويل، اجعله يرتاح، يلتقط أنفاسه، وهو سيحكى كما ربيناه، أن لا يخفى شيئا، وجعا أو فرحا، ابننا لا يتغير ولن يتغير مهما أخذته الدنيا ذهابا وإيابا، دعه يأخذ حمامه الدافئ، يغسل تراب السفر الطويل، وبعدها يكون طفلنا، فهو مهما كبر بأعيننا دوما طفلنا الصغير، نظرت إلى ولدها قائلة.

- هيا اذهب لحجرتك، ضع حقائبك، اذهب لحمامك لحين أعد لك طعامك المحبب، مؤكد تشتاق له.

أسرع إليهما محتويا رأس كل منهما وأخذ يقبله قبلات متسارعة، أثارت مزيدا من القلق داخل صدر كل منهما، بوقت واحد تمتم كل منهما.

- نتمناه خيرا

أسرع بالدخول إلى حجرته، بدل ثيابه، تناول ملابسه الداخلية وجلبابا فضفاضا يناسب هذا الجو شديد الحرارة، أسرع إلى

الحمام، به رغبه عارمة للماء البارد، بل شديد البرودة، استقبل المياه بفرح، عاد كأنه طفل صغير، يستقبل بعض الماء بكفه، يقذف بها جسده مبتسما، أنهى استحمامه، خرج ووجهه غاية بالإشراق، دخل إلى قاعة الطعام، كانا بانتظاره، الصمت ران على الجميع، مجرد عيون تتبادل النظرات، انتهوا من طعامهم، أتت الأم بالشراب البارد، أنهى تناوله سريعا، وجد نفسه يقذف بذاته نائما على ساق أمه، سكت بعض الوقت، زفر طويلا، صعد ببصره إلى أمه بعد أن القى نظرة سريعة إلى الأب، الذى تحمل مقلتيه العديد من الاسئلة، تحدث.

- آهٍ وآه يا أماه، كم أشتاق لهذا دوما، أتمنى أن أنام على ساقك، تمررين يدك على وجنتي، تعبثين بشعري، كم أن هذا أمر يضخ الكثير والكثير من الإضاءات والدماء الساخنة بداخلي، يعيدني كأني بلحظة ميلاد جديد، عندما تفعلين هذا، تزيلين عن نفسى ما بها من ألم وترح وتعب في وقت واحد، لا تقلق أبى، لا تقلقي أمي، أنا بخير طالما أعيش مشمولا بدعواتك التي تظللني وتحيطني من كل جانب، أعرف أن هناك قلقا بدواخلكم، لأنى خرجت عن طقوسي وعاداتي، فقط هذه المرة كنت متلهفا على عودتي سريعا إلى أحضانكما،

إلى دفئكما، هذه المرة تختلف كثيرا عن كل المرات السابقة، لن أخفى عليكم أي شيء، قابلت أميرة بملامح فرعونية، وإن كانت تنتمى لعالم الغرب، وجدت نفسى مشدودا إليها رغم صغر عمرها، أشعرتني أنها تاريخ استيقظ ونهض من نوم عميق لقرون يعلم مداها الله، على مدار أيام المعرض كانت تحضر، وأجد نفسى أندفع إليها، كأنها نداهة تناديني، وعندما زرتهم صحبة دكتور زاهر، زادت بي مساحات الشغف، لم أبح لأحد ما بداخلي، ظنا منى أن هذا ربما أمر عارض وينتهى أمره، ولكن وللحقيقة صورتها، حديثها ، حركاتها، تشاركني لحظاتي، لا أدرى سببا ولا تفسيرا، فجئت السكان لعلني أجد تفسيرا لديكما، بداخلي كثير من التساؤلات، هل ما حدث مجرد صدفة تنتهى بتوالي الأيام والسنين، أم قدر خطه رب العالمين بكتابي، جد أنا حائر.

نهض الأب، اقترب منه، مد يده إليه، أنهضه من جلسته، سار به إلى إحدى زوايا الحجرة، جلس وأجلسه بجانبه، احتواه بذراعه، وضع رأسه على صدره، أخذ يمرر كفه على رأسه، على وجنتيه، على صدره، يداعب شعره بأنامله، يقبله قبلات متلهف على بث الطمأنينة إليه، تناول كفه، ضغط عليه، قبل راحة كفه مرات، يرنو إليه متفحصا له، ربت عليه

ربتات حانية، صمت طويلا، يتبسم تبسمات قصيرة، يقطب جبينه برهات من الوقت، تكلم بصوت هادئ، يعلو بعض الشيء ببعض الكلمات

- سبحان الله لا حول ولا قوة الا بالله العلى القدير، وكأن الزمن يعيد نفسه، الأمس هو اليوم ومؤكد هو الغد، سوف أقول لك ما قاله جدي لأبي حين أخذ رأيه بمسألة رحيلة للعمل هنا، لكل إنسان مسار كتبه الله له، دع الملك للمالك، لن يصيبك إلا ما كتبه صاحب الجلالة، يذكرني هذا بقول سمعته مرارا وتكرارا من الخواجات، إن قدر الأبناء هو في الكثير من الأحيان قدر الآباء والأجداد، قد تختلف نسب التشابه، وقد تتغير التفاصيل، لكن التشابه موجود، هيا أنهض ونم قليلا، نذهب ليلا إلى حيث حلقة ذكر الشيخ ميرغني، أم نسيتها، تغسل قلقك وتريح نفسك.

نظر إلى زوجته.

- ادعى له يا بخيتة، دعوة الأم مفتحه لها أبواب السماء.

رفعت رأسها إلى أعلى رافعة كفيها.

- الله يعلم كم أدعو له بكل لحظاتي، ربنا أكيد عالم بنا وبه، وأكيد يرشده للخير، آمين يا رب العالمين، أتمناها نداهة خير له.

ذهبا بعد العشاء إلى حلقة الذكر، اندمج فريد هذه المرة على غير العادة، هو يرتاد كثيرا هذه الحلقات من الصغر، الكثير يجيء إليها بحثا عن التحرر، وإعادة الحياة إليهم من جديد، هو يرى أنها تغسل وترفع الكثير من العناء والهموم، عن النفوس والأجساد، وهو كان فعلا يحتاج إلى هذا أكثر من أي مرة، عادا يشعران أنهم خفيفي الوزن، دخلا للبيت ممسكين بيديهما متشابكة، يكادا بمشيتهما يتراقصان، نظرا إلى (بخيتة) نظرة بها بريق السعادة، ألقيا التحية، واخذا الطريق إلى الصعود إلى سطح البيت، هما اعتادا هذا دوما بعد كل حلقة ذكر، اكتفت بالتمتمة.

- ربنا يزيدكما سعادة، ويهدي سرك يا ابني، آمين رب العالمين.

..8..

قَدَمٌ عَلَى حُلْمٍ

بالأيام التالية لانتهاء المعرض، انتابتها لحظات شرود دائمة، كانت تستعيد كل اللحظات التي عاشتها خلال هذه الأيام، ساعات نومها تقلصت، حديث العرافة زاد طنينه، حتى عندما عادوا إلى لندن وحياتهم المعتادة، لم يفارقها أرقها وشرودها، حتى بساعات دراستها اليومية، الأمر صار ملحوظا من الجميع، مدرسيها الذين يعرفون عنها التفوق الدائم والمتميز، انتابهم القلق، جلسوا إليها مرات ومرات، تحدثوا إليها، لم يتوصلوا لشيء، طلبوا الأب والأم، تحدثوا اليهما بشأن هذا التغير الذى اعترى ابنتهما، إمكانية تأثيره على تميزها وأقولها، هما أيضا أكدا على هذه الملاحظة، الأب بتخصصه النفسي وعد بحل هذا الأمر بأقرب وقت ممكن، خرجا طالبا من الأم أن تعود للبيت، رفعت الأم أهدابها دهشة وتساؤلا، ولكنها لم تبد أي تساؤل أو رفض لطلبه، هو بحاجة للتجول

معها وحده، عاد بها إلى البيت بعد أن تجول بها بشوارع كثيرة، محتويا كتفها بذراعة، حدثها عن طفولتها، عن العابها، عن أحلامها، عن صديقاتها، عن حفلات أعياد الميلاد، عن أعياد الكريسماس، عن رحلاتهم، استكانت، عاد لها الهدوء بعض الشيء، عرج بها إلى محل لأحدث صيحات الملابس، اقتنى لها عدة ثياب تبعث على الفرح، عادا إلى البيت يغمرها كم كبير من البهجة، تمتمت الأم هامسة لنفسها، الإنسان غريب الأطوار، ينقلب حاله بلحظات، أشار لها بأن لا مجال لأى نقاش الآن، أومأت برأسها فهما لمطلبه، طلب من الابنة أن تأخذ حماما دافئا، وتسترخى قليلا ثم تحضر لتناول الطعام معهما، أجابته بنظرة من عينيها تحمل الموافقة، بعد الطعام جلس الأبوان اليها، أمسك الأب يديها بين يده، أمعن النظر إليها، ربت على وجنتيها، مرر يده الحنونة على شعرها، تكلم.

- ابنتنا الحبيبة، أعرف ما بك، وألتمس لك ألف عذر، أنت تعيشين حالة إبهار شديدة بما رأيت من معروضات عالم الفراعنة، أعرف أن هذا يثير الكثير من التساؤلات، ولكن يا ابنتي علينا ان نستفيق سريعا من هذا، لا أريده فوريا لأنه صعب، اخرجي من شرودك

تدريجيا، وأنا على ثقة أنك قوية وتستطيعين، أنت عليك التركيز بدراستك وتميزك لكي تحققي حلمك، أن تكوني صاحبة شأن علمي بارز، عديني بهذا، شد على يديها.

تساقطت بعض الدمعات، رفعت يدها، مررتها على وجه ابيها، رمت نفسها بين أحضان، تحدثوا.

- أبى، أمي، أسفه لأني تسببت لكم بقلق كبير. ولكن كما قلت أبى، فعلا أنا اعيش انبهارا شديدا، وتساؤلات عدة تثور وتموج داخلي، ما رأيته **شيء** خيالي، علامات استفهام كبيرة، كيف بهذا الزمن السحيق، توصلوا لهذا، وبالدقة الفائقة، التفاصيل الدقيقة عرفوها، أي قطعة كانت بالمعرض تشعرك أن بها روحا وحياة، تكاد تنطق وتحكى عن عصور، عن كل شيء بعوالمهم، اطمئن أبى، ثق أنها فترة مؤكد ستنتهي، ولكن لي مطلب أرجو أن تعدني به.

ربت على كتفها مرات ومرات مؤكدا موافقته، طلب منها إكمال حديثها.

- كل ما أرجوه، أن ألتحق بعد إنهاء دراستي الثانوية بإحدى الكليات التي تهتم بعالم الآثار، بأي مكان بالعالم،

هذا مطلبي الوحيد، وأعدكما بالتميز وتحقيق حلمكما بالتميز والتفوق.

صدرت ضحكات من الأبوين، وأسرعا إلى ضمها إلى صدريهما. إشارة إلى موافقتهما، عقب الأب ضاحكا.

- لا مناص، يبدو أن مقولة لعنة الفراعنة مقولة فعلية، وإن كنت لا أحبذ كلمة لعنة، لنقل جاذبية عالم الفراعنة، لك ما تريدين.

بالأيام التالية عادت لطبيعتها لحد كبير، رغم أن كل المشاهد تشاركها لحظاتها، وعد الأب كان أكبر حافز لمعاودة الدراسة بتلهف، تمنت التعجيل بمرور الزمن، لتلتحق بعالم الآثار أكاديميا، ما كان يسبر أغوارها ويهدئها هي البطاقات البريدية التي تحمل صورا لآثار مصر، والعبارات المكتوبة خلفها، كلمات بسيطة ولكنها ترى أنها تحمل بطياتها الكثير والكثير من معانى تشعر بها، كانت تأتيها من (فريد)، كتب لها مرة بعد مرور أكثر من عامين على لقائهما أثناء فاعليات المعرض، أن هناك معرضا قريبا بلندن، ولكن للأسف لن يكون متواجدا، لكنه سيوصى بها زميلة، ارتادت كل أيام المعرض، تناست المجلدات التي أحضرها، د. زاهر، نالت شهادة الثانوية، التحقت بكلية آداب، جامعة أوكسفورد، قسم

الآثار، أقبلت على الدراسة بشغف كبير، كانت ترسل مستجداتها إلى فريد، قدم لها عونا كبيرا بمجال دراستها مما جعلها مميزة، ومعروفة بين طلبة القسم، ولدى أساتذتها، بيوم ما كانت مسترخية على فراشها، مغلقة عيونها، استعادت كل الأمس، خاصة أيام معرض في واشنطن، فجأة انتفضت تضرب رأسها بيدها، لما تناست المجلدات، أسرعت إلى حيث حقيبة المجلدات، أفرغت محتواها، بسطتها على مائدة موجودة بالحجرة، يا الله مجلدات تتناول عنوانيها كل مفردات الحياة المصرية النقود، الأسواق، الطب، الأعياد، الملابس، الديانات، البيع والشراء، كل مشتملات الحياة، بلا إرادة تناولت المجلد الفاخر الخاص بالملابس، بهرتها تصاميم الأزياء، وتناسق ألوانها، وتعدد تفصيلاتها، طال بها الوقت، لم تنتبه لدخول أمها الحجرة، بعد أن تفقدتها بحجرتها، ربتت على كتفها بحنان، رفعت رأسها وعيونها المملوءة دهشة إليها، جذبت يد الأم، أجلستها بجوارها، اخذت تطلعها على صور الملابس، الأم أيضا أصابتها الدهشة، كانت تعشق التفصيل، وإن كانت ابتعدت عن ممارسته من سنوات بعيدة، بعد وقت ليس بالقليل تكلمت.

- ماما ما رأيك لو استعدتي ذاكرة هوايتك السابقة، وتصممين لي بعضا من مثل هذه الملابس، أود بشدة أن ارتديها.
- ابنتي لكل زمن ملابسه التي تعبر عنه، وهذا أمر طبيعي، فأنت ترين تغيير خطوط الموضة كل فترة، وملابس هذا الزمن الماضي صارت من الماضي، كيف ترتدين ملابس لا تناسب عصرنا، سينظرون إليك على أنك غير طبيعية وبك مس من الجنون، وجدت نفسها تلقى نفسها بين أحضان الأم، تقبلها بشدة، تربت على ظهرها وكتفيها مرات عديدة، همست بأعيننا.
- أمي رجاء استجيبي لرغبتي، ارجوك، لا أهتم بالناس، هذه حرية خاصة، ونحن تعودنا على فعل ما نراه مناسبا لنا.

أطلقت نفسها من بين الأحضان، وصوبت عيونها تحمل كل معان الرجاء والتوسل، ثم أطلقت ضحكة طويلة موجهه الحديث لها.

- على الأقل أمي الجميلة تعاود تذكر هواياتها القديمة والمحببة، صنع تصميمات الثياب التي كنت بارعة بها،

والتي كانت تتلهف عليها بيوتات الازياء، لعل ما أطلبه يكون بدايات لأمور جديدة تسعدك.

تعانقا من جديد، وتصاعدت ضحكاتهن، التي أتت بالأب مهرولا، متسائلا.

- ماذا هناك حبيباتي، أضحكاني معكما.
- ابنتك مصرة وبإلحاح أن أصمم لها ثيابا مشابهه لأزياء الفراعنة، وما علينا إلا أن نلبي رغباتها، هل لدينا غيرها، ملكة قلوبنا.
- على غاليتنا (لوزير) ان تأمر ونحن علينا التنفيذ.

فتح ذراعيه، محتويا ابنته وزوجته، يميل هنا وهناك، يقبلهما ويربت عليهما بكامل الحب ووهج الشوق.

.. باليوم التالي وبعد أوبتها من يومها الدراسة، وأخذت قسطا من الراحة، عادتا تتصفحان مجلد الأزياء بالعصر الفرعوني، الأم كانت تشاهد الأمر للمرة الأولى بعين من عمل سابقا بتصميمات الازياء، كانت تمعن وتدقق بالتفاصيل، كلما قلبت بالصفحات، كلما جحظت عيناها، وضربت كفا بكف، لم تنتظر طويلا، صاحت.

- غير معقول، مستحيل، هذه تصميمات لا تستطيع أي بيوتات أزياء تصميمها على هذا النحو، كيف فعلو هذا، كيف وبهذه الدقة وبهذا التناسق، حتى تجانس الألوان، أمر يفوق الخيال، لك حق أن تصرى، أقول لك شيء، أنا حاليا أشعر كأن روحا تلبستني، كأن صحا بي حبي للتصميمات، فعدت متلهفة عليها، سوف أصنع لك عددا منها، متعدد التصاميم، فقط سوف أضيف لمسه عصرية إليها لتساير الزمن، وللحق حركت مشاهداتي داخلي فكرة، لن أعلنها حالا، سوف انتظر حتى تختمر جيدا **بعقلي**، هيا لنحدد ما تريدين، وغدا ننزل لشراء الأقمشة المناسبة.

صاحت **الابنة** فرحا، عاودت **الارتماء** بأحضان الأم، طال العناق، وطالت الضحكات.

..9..

نداءُ الجذُورِ

لم يعرف النوم طريقا إلى عيني (جلال الهميلي) وهو دوما نائم بجوار الابن أعلى سطح الدار، عكس فريد الذى ذهب بسبات عميق، يشعرك أنه تحرر من أثقال كثيرة، جلال اندهش من هذا الأرق الذى يلازمه والذى لم يعهده من قبل، هو دوما عندما يلقى بنفسه على فراشه، يترك على باب الحجرة، كل ما مر به، النوم عنده هو أن ينسى كل شيء، حتى يصحو عفيا قويا، أخذ يتنقل بعينيه بين ابنه النائم

بجواره، والسماء المرصعة بالنجوم، سبحان الخالق، أغمض عينيه مرات، نداء وتوسلا للنوم، بالنهاية أصابه النعاس قبيل الفجر، راح بنوم عميق، ولكن أنفاسه كانت مسموعة لحد كبير، مع هدأة الليل، فجأة وجد صورة أبيه تداعب خياراته، بل أحس بأن أباه يلكزه برفق، وتشتد اللكزات، فتح عينيه على سعتيهما، وجد صوته يخرج مخاطبا أبيه، أبى ما بك، هل أنت غاضب منى، اخبرني ماذا يغضبك، لا أعرف الحياة وطعمها إن أغضبتك. وجد الأب يجلس بجواره، ينهضه، يدخله إلى صدره، يربت عليه، يمرر يده على وجنتيه، بصوت رائق مسموع يقول، إبني كل شيء أنت جيد به، وتسير كما ربيتك وعلمتك، ولكن هناك شيء منقوص، لماذا قطعت صلتك بأهلك، لم تذهب لهم ولا مرة، لابد لأي إنسان أن يصل جذوره، الجذور هي صلابة الإنسان، والإنسان بأهله وزوجته، الله يرضى عليك، اذهب اليهم، ودهم، تقارب معهم، أعد الجسور، عدني بهذا وعلى الفور، . خرج صوته كأنه يخرج من جوفِهِ، حاضر، حاضر يا أبى ، انتفض جالسا، يردد، سبحان الله سبحان الله، حاضر يا أبى، علا صوته حتى صحا فريد، أصابته الدهشة، عيناه ممتلئتان تساؤلا، لسانه قد انعقدَ، لم تخرج الكلمات من فمه، كل ما

استطاع فعله ، الاقتراب من ابيه، واحتواء كتفيه بذراعه، والهمس بالبسملة وترديد فاتحة الكتاب، الأب انهمر بالبكاء، شلال لا متناه، حتى بلل ثيابه، لم يجد الابن مناصا من التساؤل بوضوح.

- أبى ما بك، هل تشعر بمرض، بتعب، ما بك، أنت بخير، رد على.

ارتعاشات الأب زادت، وصار يهتز يمينا ويسارا، ريشة يعصف بها هواء شديد، ارتمى على صدر ابنه، تكلم بصوت متقطع.

- روح جدك أتتني ، عاتبني عتابا شديدا، وحقيقي له حق، فأنا فعلا نسيت وتناسيت جذوري، أهلي الذين أنتمى إليهم، لم أحاول التواصل معهم، صحيح الكل هنا يحمل لنا الحب والود، عشنا معهم وبينهم عقود زمنية طويلة لا أعرف عددها، ولكن الجذور هي أساس أي إنسان، وأنا تركت جذوري، لم أكلف نفسى أن أظل قريبا من جذوري، أن أستنشق رائحتها، أنا لم أذهب إلا مرة واحدة وأنا صغير جدا جدا، عندما ذهبنا لرؤية جدى الذى جاءنا الخبر أنه مريض جدا، ولكن من سوء حظ أبي أنه وصل متأخرا، أتذكر أننا عندما وصلنا، وجدنا

خيمة كبيرة، وممتلئة بالناس، والقرآن يتلى، والناس تندفع إلى أبى تعانقه، توجه له كلمات لا أعيها.

مسح دموعه بأطراف جلبابه، أمسك بذراعي ابنه بشده، خاطبه

- هل عندك استعداد للذهاب معي حالا إلى مكان أهلي، جذوري، إلا إن كان لديك ارتباطات بعملك، أستأجر سيارة وأذهب لحالي.
- لا أبى أنا معك، أنا إجازة أسبوع كامل، وإن أردت زيادتها أتصل بهم، فقط مستغرب، بعد عقود طويلة وعمر طويل، تتذكر، وتأخذك الرغبة بشدة للذهاب، بعد هذا الزمن، هل ممكن يتذكرونك، يرحبون بك، الزمن به دوما عواصف من التغيير؟
- ولدي، أنا ألبى نداء أبى، لا أنتظر ما بعد النداء، جاء إلى بمنامي يلومني، ذكرني بكلماته القليلة التي قالها لي وهو يودع الحياة، قبض على معصمي بشدة حتى كدت أصرخ ألما، صوب عينية إلى، أحسست كأنها نفذت إلى داخلي، أهلك وناسك قرب منهم، خبط على رأسه بعنف، صرح.

- كيف نسيت هذا، سامحني أبى، سوف نذهب عرفونا أهلا وسهلا، وإن لم يعرفونا لن نخسر شيئًا، فقط أكون لبيت دعوة أبى، هيا نغتسل ونصلى الفجر، نتناول فطورنا، وننطلق.

احتوى كتفي ابنه، وللمرة الأولى من سنوات يقفز درجات السلم باندفاع مجنون حتى أن ولده لم يستطع مجاراته، وكاد ينكفئ مرات، نادى على زوجته، خرجت تتساءل ماذا هناك، طالبها بتجهيز الفطور، هو اشتاق لجلستها، الطبلية ونس ولمة وإحساس مغاير لهذه الموائد الخشبية، التي تشعرك بأن هناك ما ينقصك، سامح الله من اخترعها، طالبها بأن يكون الفطور جاهزا بعد حضورهم من صلاة الفجر، لأنهم سيكونون على سفر، لم يدع لها فرصة للتساؤل، غادر مسرعا ولده بأعقابه، أطال بصلاته ودعائه، تخضبت وجنتاه بالدموع، فريد وجد نفسه ، يشاركه نفس الدموع، انتهوا من صلاتهم، بالمنزل وجد (بخيتة) قد أعدت الطبلية تعلوها أطباق الطعام، الصمت ساد جلستهم، هذا ما زاد دهشتها، مد يده بعد حين، ربت عليها.

- اطمئن لا شيء يستحق القلق، سوف نذهب أنا وفريد إلى جذورنا، عزبتنا التي هي أساس عائلتي، لا تستغربي أنى بعد هذا العمر، أتذكر وأذهب، أبى أتاني البارحة بمنامي، يوبخني ويلومني، صحيح كما سمعت من الكبار أصحاب الخبرة، أن بداخل كل إنسان أشياء كامنة، ربما نتناساها، ربما نتجاهلها، ولكنها أبدأ لا تنتهي، يجيء وقت وتصرخ مطالبة بإظهارها، وإعلان أنها حقيقة، ارتشفا الشاي على عجالة، نظر إليها، قبل جبينها، أيام قليلة ونعود، نرجو دعواتك.
- أنت تعلم أن نفسي تدعو لك، ربنا يطمنا عليكم، بأمان الله ورعايته.
- اذهبي عند بنت من البنات، حتى نعود.

اكتفت بإيماءة من رأسها، صاحبتها بضع دمعات تساقطت.

خرج محتويا كتفي ولده، خطوته سريعة، متلهف على تلبية النداء، أمر ابنه بالمرور على أقرب سوق يصادفه أثناء سيرهم، يريد شراء كميات من التمر والكركديه وصفائح الملوحة، هدايا يقدمها لمن أصبح كبير عائلة الهميلى، أرخى المقعد الى الخلف، حتى ينال قسطا من راحة الجلوس، الرحلة نصف نهار وأكثر، نبه على ولده، بأن يأخذا فترة

راحة كل وقت صلاة، يغتسلا، يصليا، يتناولان بعض الطعام، يريحان اقدامهما من ثبات وضعية الجلسة، السيارة تنهب الطريق، الصمت يسود بينهم، الأب غفا قليلا، تخيل بغفوته زيارته مع أبيه للعزبة، ليطمئنا على الجد، وصلا متأخرين، كان الجد قد ودع الحياة، شيعت جنازته، جلس الأب القرفصاء، محتويا رأسه بين كفيه، بكى بكاء حارا، التف حوله الاخوة وبعض الأقارب يواسونه، يطيبون خاطره، أنهضوه ليأخذ العزاء، الحزن اعتلى كل وجوه أهل العزبة، والذى علق عليها الأب إبان عودتهم، أن الجد كان محبوبا من الجميع، كان مرجعا مهما لحلول العديد من مشاكل قريته، بحكمته وثقابة فكره، يتذكر أنهم ظلوا لبضع أيام حتى تنتهى مراسم العزاء، يتذكر أنهم أدخلوه إلى حجرة جدته التي لم يرها من قبل، سيدة تجلس على سريرها صاحب الأعمدة المرتفع، ممتلئة الجسد، صاحبة بشرة بيضاء، على خلاف بشرة جده، حسبما قيل له، حكى له أبيه فيما بعد، أن جده تعرف بجدته أثناء نزوله للبندر لبيع بعض خضروات الأرض، رآها مرات ومرات، تابعها بمسيرها، بكلامها مع الباعة، بملابسها المحتشمة، سأل عنها العديد من سكان المنطقة، عرف أنها ابنة لصاحب محل بقالة، بشارع

بعيد عن المنطقة، صار أسير التفكير بها، حدث أبيه وأمه عنها، أشارا عليه ألّا يفكر في هذا، من المستحيل أن توافق من عاشت بالمدينة، ولها حياة وطباع بعيدة جدا عن معيشة أهل القرى، فما بالك ونحن عزبة، يعنى جزء تابع لقرية، حاول وجرب الذهاب إلى أسواق أخرى، ولكنه أبدأ لم يستطع، تجرأ يوما ، اقترب من إحدى البائعات، صاحبة مكان دائم، عرف أنها هنا من سنوات، ربما تقارب عمره، كانت دوما تتدخل حماية له حين يتعرض لبعض المضايقات، ومحاولات فرض إتاوة عليه، ذهب إليها، خفيض الرأس، جلس على حجر مرتفع بجوار فرشتها، نظرت إليه نظرة فاحصة، لم توجه له أي حديث، تجيد قراءة الوجوه، من السنوات الطويلة التي عاشتها داخل السوق، لا تعرف عددها، وجدت نفسها به من صغرها، هو لصيق بها وهى لصيقة به، حتى عندما تزوجت، كان من أبناء السوق، أطفالها ولدوا به، تربوا على فرشتها، أصبحت مثل السمك إن غادر الماء مات، لم تخرج خارجه على الإطلاق، هي تعرف أن بداخله مراجل من أمور شتى، لمحت به لهفه وشوق لهذه البنت تحديدا، ابنة منصور أبو الهوى، لمحت تغيرات وجهه كلما رآها، كل سكناته تتحرك، تود لو تهرول

إلى الفتاة، يبثها شوقه، ينبئها عن حاجته لها شرعا، هو قروى يملك القدرة على تلجيم أحاسيسه، تركته فترة طويلة دون أن تبادره بالحديث، لابد أن يهدأ أولا حتى يخرج ما بداخله دون خجل أو خوف، قدماه تهتزان بشده، يفرك كفيه بشكل دائم، قطرات عرق تسيل على وجهه، بل العرق غزا كل مسامه حتى بلل مساحة صدر جلبابه، يرفع الرأس بين الحين والآخر، ثم يعود بها إلى حالتها السابقة، طال أمد الصمت، وهى تنظر إليه مرارا، لعل النظرات تفك عقال لسانه، لم تجد بدا من بدأ الحديث.

- ما بك يا ولد، أم أنت كبير على كلمة ولد، والله يا محمد من أول يوم وأنا تابعت كل شيء عنك، أنت ولد أصول، شهامة ومرؤة ورجولة، لم نر منك أنا وكل السوق أي عيب، تكلم يا بنى، الكلام علاج للكثير من أوجعانا، أخرج ما بصدرك، نحن أهلك وناسك.

رفع رأسه قليلا، نظر إليها، لمحت بريق دموع يملأ عينيه، عاود الصمت للحظة، تكلم بعدها.

- خالة عديلة، انا والله يعلم أنى أعتبرك أما لي، ومؤكد أنت تعلمين بشكل كبير ما أنا فيه.

تخابثت عليه.

- هل ضايقك أحد، هل بك مرض، أم فقدت نقودك، أم ماذا، تكلم.

علت شفتاه بسمه خفيفة، مد يده، أمسك بيدها، نظر إليها، تبادلا البسمات، ربتت على يده، بمدلول ان تكلم.

- خالتي، بلا أي لف أو دوران، أنا مشدود لبنت من سكان المنطقة، ومحتاج أتقدم لها، محتاج أعرف رأيها ورأى أهلها قبل أهلي، وليس أمامي إلا أنت.

هي تعلم مسار نظراته من شهور، لكنها سألته.

- من هي.
- أنت تعرفين لا تخفى عليك خافية.
- تقصد ملكة بنت على أبو الهوى، عينك وقعت صح، اختارت صح، جمال، أدب، أصل وفصل وحسب، لا تقلق أنا أذهب لهم، أفتح معهم الموضوع، والقرار لله من قبل ومن بعد.

مر يومان كأنهم شهور، نادت عليه باليوم الثالث، لمح بعينيها بريق فرح، هرول إليها، أخذ رأسها بين يديه، قبلها مرات، ضحكت.

- متعجل، انتظر حتى أرد عليك.
- خالتي، الرد واضح من وجهك، يا وجه الخير
- أحضر أباك وأمك غدا بعد المغرب، أنا حددت الموعد، هم ينتظرونكم.

اندفع إليها محتضنا، غير عابئ بنظرات أهل السوق، الذين يتشوقون إلى معرفة السبب.

بالموعد أتى بصحبة الأب والأم وأحد الاخوال، جاء محملا أقفاصا للبط والحمام والدجاج، والديوك الرومية، لم يطل بهم النقاش تمت الموافقة، شهور وكانت عروسا ببيته، بسرعة لم تخطر على باله أو حتى بال أحد من أهل العزبة، اندمجت معهم، صارت تجلس على العتبة كل عصرية، تنادى أولاد الشارع، تصنع لهم أرغفة الخبز، مغموسة جبنا وحلاوة، تجلسهم، حولها تحكى لهم حكايات، حتى نسوة العزبة، أحببنها، يجلسن اليها تعلمهن الطهى واجبات يسمعن بها فقط، أنجبت حسن، حامد، جلال، وصيفة، حمدية، ما سمعه من أبيه أنها ماتت بعد الجد بخمس سنوات، بعدها لم يعرف عن أسرة أبيه شيء، وبلا سبب معلوم.

انتبه من غفوته على ربْتَةٍ خفيفة على ساقه، وهمسٍ من ابنه.

- أبي أبي، استيقظ، سوف نستريح قليلا، لقد نمت لساعات.
- لم أنم ابني، لقد كنت مع ما أتذكره من حكايات جدك، عن أبيه، عن أمه، عن بعض الأحداث، كم من الوقت مر علينا.
- ثلاث ساعات أو أكثر، نسترح نصف ساعة، وبعدها نعاود السير، ثلاث ساعات أخرى نكون بالقاهرة، بعدها ساعة ونصف نصل بأمر الله إلى طنطا.
- بأمر الله.

دخلا إحدى الاستراحات المتناثرة على الطريق، اغتسلا للوضوء، استعدادا لوقت صلاة الظهر، المؤكد سوف يكون عند وصولهم للقاهرة، تناولا طعاما خفيفا، ومشروبات ساخنة، مددوا أقدامهم لإراحتها من عناء وجودها على حال واحد ثابت، بعدها أكملا الطريق.

عاوده الشرود، وقد طرأ سؤال بداخله، لماذا ابتعد أبيه عن أهله وناسه، ما يتذكره أنه عند عودته من العزبة وحضور عزاء والدته، عاد يومها مهموما، انطوى على نفسه فترة طويلة، اعتزل كل شيء، اعتزل العمل لأيام، اعتزل جلساته، اعتزلهم هم أيضا، الأم وأولاده، أصبح صامتا، يدخن

بشراهة، متبرما على الدوام، يأكل لمجرد سد رمقه، كان يتمتم بكلمات غير مفهومة، الموت لا ينتهي بالدفن، بل بداية، حينها لم أفهمها، الآن تدفع بي إلى التساؤل، هل حدث خلاف على توزيع الميراث؟، لا أظن، ما سمعته عن الجد، أنه كان حصيفا، لا يترك أمرا للصدفة، مؤكد هناك وصية، هل الوصية كانت عادلة، صدرت عنه تنهيدة عميقة وطويلة، جعلت فريد ينتفض، تسائل.

- ما بك أبى ؟
- أبدأ كل ما هناك أن هناك أمورا لم أفهمها حينها، بدأت تنتفض بداخلي من جديد، اقول لك كلها ساعات وينجلي الأمر، دوما الإنسان عجول لا يعرف الصبر، رغم علمه بأن الصبر مفتاح الفرج كما يقولون، انتبه للطريق، ربنا يسلم عمرك.

الحديث الدائر مقتضب، حول حكايات ونوادر (بخيتة) وجيرانها والمشاكسات اليومية، هي طيبة، قلبها طيب، فقط ينقصها أن تقلل من صراحتها قليلا، وحكايات عن عملهم، المذياع ثابت على إذاعة القرآن الكريم، يبث طمأنينة، ويطرد قلقا وتخوفات رابضة بداخله،

سارا على هذا المنوال، ثم استراحات، صليا الظهر بإحدى الزوايا على الطريق، وصليا العصر ببنها، قرب مغيب الشمس، واجهتهم لافتة (محافظة الغربية ترحب بكم)، انفرجت أساريره، كأنه مغترب غاب طويلا وعاد، احتضن كتفيَ ابنه بشده، طلب منه التوقف بجانب بعض سيارات نقل الركاب، نزل، اقترب من بعض السائقين، سألهم عن الطريق لعزبة السبيل، البعض أنكر المعرفة، اقترب منه شاب بمقتبل العمر، مترجلا من إحدى السيارات.

- عم الحاج، أمامك حوالي مائة متر أو أكثر، على يمينك طريق، هو طريق طنطا الزقازيق، تمشى به، تترك أول بلد، اسمها (ميت حبيش البحرية)، أما تنتهي منها، سوف تجد ما يشير إلى العزبة لولا أنى مرتبط بعمل ضروري، لأتيت معك، أنا منها.

دخلا إلى الطريق، زحام شديد، الأبنية تكاد تخنق الطرق، همس يا الله، ما هذا الزحام، وما هذه البيوتات، كل هذه كانت أراض زراعية، كيف حدث هذا.

- يا أبى! هذا منذ أكثر من خمسين عام، كل شيء يتغير حتى البشر، فكيف لا تتغير الأماكن والأزمان.

- معك حق، كل شيء يتغير بين اللحظة والأخرى.

توقفا أمام اللافتة التي تحمل اسم العزبة، نزلا يجولان بأبصارهم بما يرونه من بيوت العزبة، هي لم تعد عزبة، قرية قريبة من المدينة، بنايات متعددة الطوابق، محال وشركات على جانبي الطريق، قال لولده.

- عندما جئت هنا، كانت كل هذه زراعات، والبيوت لا تتجاوز عدد أصابع اليدين، وعلى ارتفاع واحد، طابق أو طابقين على الأكثر، بالطوب النيّ كما كانوا يسمونه، عروق خشبية، أعواد حطب قطن وقش أرز، تعتلى الأسطح، سبحان الله، التغيير سريع كالنار بالهشيم.

طال وقوفهم، من يمر بهم، يلقى عليهم نظرة فاحصة متسائلة، ويذهب بطريقة، اقترب منهم شاب تجاوز العشرين من العمر، سألهم.

- هل تريدون شيء، عم الحاج.
- نعم يا ابني، نريد معرفة منزل كبير عائلة الهميلى.
- تفضلا، أوصلكم إليه، الحاج (حسن **الهميلي**) هو كبيرهم.

ركب معهما، لمدة لا تتجاوز الخمس دقائق، أشار لهما بالوقوف أمام منزل مكون من عدة طوابق، مقام على مساحة كبيرة، تحيط به فيما يبدو أنه حديقة، أشجار متعددة الأشكال، وببناء حديث، طرق الشاب جرس الباب، فتح الباب عن شاب تجاوز العشرين عاما بقليل، حدثه الشاب.

- حازم، ضيوف يسألون عن جدك.

أفسح لهم الشاب الطريق، فتح الباب على سعته، قائلا.

- تفضلا، أهلا وسهلا، نظر بعدها إلى من صاحبهم.
- شكرا (إبراهيم)، تفضل شرفنا.

انصرف الشاب معتذرا، تقدمهم إلى حجرة على يمين المدخل، كانت كبيرة المساحة، بها عدد كبير من الكنبات البلدية، مكسوة فرشا أنيقا، موحد اللون، يتوسطها كرسي كبير مذهب، بطراز معين، يبدو أنه مخصص للكبير، أشار إليهم بالجلوس، ريثما يخبر الجد عنهم.

علقت على جدران بها صور كثيرة، وجد نفسه ينهض، يمر على الصور، يتفحصها، لم يعرف منها إلا صورة الجد، شبيهه بمن كانت معلقة بحجرة أبيه، مؤكد هؤلاء، الجدة، الأعمام، الأحفاد، صور تجمع كل العائلة، لمح بإحداها أبيه

صغيرا يتوسط إحداها، قطع عليه استمرار التأمل، دخول رجل، طاعن بالعمر، فارع القامة، ممتلئ الجسد، منحنى قليلا من عند الكتفين، ذو لحية كثيفة، ذهب من فوره إلى كرسيه، جلس، شملهم ببعض النظرات، توقف كثيرا أمام وجه الأب، أمعن به النظر بشده، رحب بهم، طلب من الأب، الاقتراب منه، أجلسه قريبا منه، زاد من النظر اليه، ندت عنه صرخة، رفع يده، احتوى الوجه بين يديه، أخذ يمررها مرات على كامل مساحة الوجه، أدمعت عينيه، مد يده، جذبه بشده، أدخل الأب إلى أحضانه، فريد والحفيد كأن الطير وقف على رؤوسهم، ما يحدث أصابهم بالوجوم والاكتفاء بالنظر للمشهد، انتبها على صوت الشيخ.

- أنت منا، انت ابن (محمد) صح، يا الله، تحقق رجائي من الله، أن أراكم وأنا على قيد الحياة، سبحانك ربى انتظرنا طويلا، لكل أمر قرار الله،

طال بينهم العناق، حتى (فريد) والحفيد وجدا نفسيهما يشاركونهما نفس الحال.

- يااااااه، عمر بحاله، تهنا عن بعض، ولكنى كنت على يقين أن الجذور دوما بحالة نداء للأفرع مهما تباعدت الأماكن والأزمان، انتفض ناهضا.

- لا وقت الآن لأي كلام، نحتفل بكم، نتناول طعامنا، لم تخبرنا عن اسمك وعن هذا، مشيرا إلى فريد، أظنه ولدك، ملامحه تؤكد هذا.
- أنا يا جدي، جلال، وهذا ولدى، فريد، ماجستير آثار ويعد للدكتوراه، يعمل بوزارة الآثار.
- بسم الله ما شاء الله، رجل ناجح يضاف إلى أولادنا النابهين، النابغين، أحسنت تربيته يا جلال.

التفت إلى حفيده، أشار له أن يطلب إعداد طعام يليق بهؤلاء الأحبة، وأخبر أعمامك يحضروا أيضا، وبعد الطعام عليك أنت وإخوتك بالذهاب والمرور على كل اعمامكم وعماتكم والعائلة يحضرون على الفور، دون أن يعرفوا السبب، المفاجآت كثيرا ما تكون احياء لأشياء نسينها أزمانا، اليوم أعتبره إعادة ميلاد لعائلتنا.

- تعالوا يا غاليين، صحيح مسير الحي يتلاقى، تعالى يا ولدى بحضني، اتشمم بك رائحة الجد، روائح الأجداد تظل بعبقها مع أجيال عديدة، لا تنقطع أبدا، فتح ذراعيه على سعتهما، ضمه إليه بشده، يشعر أنه استرد بعضا من عافيته، كان رد الفعل، تقبيل يدي ووجنتي الجد، ومعانقته بكل حب.

..10..

خُطوَاتُ

على مدار أكثر من شهر عكفت الأم على رسم بترونات أزياء، تجمع بين الزي الفرعوني وبين ما يناسب الزمن، تمسك القلم، تتخيل ابنتها وهي ترتدى هذه الثياب، تبتهج عيناها، تتضرج وجنتاها، تهمس لنفسها، ابنتي مجنونة، تتمسك بما تريد بلا أمل بأي فكاك، تعود من جامعتها، تقوم بعمل الطقوس اليومية، الاغتسال، تتناول الطعام سريعا، تذهب إلى الأم، تضمها، تنهال عليها لثما، تبادلها القبلات، تداعب وجنتيها، تهمس إليها.

- أنت بك بعضا من الخبث، تتوددين إلى من أجل مطالبك، وأنت تعرفين إنني لست بحاجة لكل هذا، فأنت وحيدتي، وعلينا أن نفعل ما بوسعنا لتوفير سعادة دائمة لديك، فقط بعض الصبر، الأمر يحتاج هدوء وعدم تسرع، وتفكير جاد، حتى نصل إلى المناسب والمميز بوقت واحد، أصارحك أن الأمر استهواني وامتلكني، أشعر بلهفه له، عمل جديد، مؤكد سوف يكون له ردود فعل كبيرة، أمهليني وقتا.

لا تجد الابنة ما تفعله سوى إلقاء نفسها داخل صدر أمها، ومنحها مزيدا من القبلات، تأخذ بالدوران حول نفسها، على أطراف أصابعها، مثل باليرينا بعرض مسرحي، ترفع عقيرتها بالغناء المرح، تدخل حجرتها، تلقى بنفسها إلى

الفراش، تغمض عينيها، تتذكر ما كان خلال أعوام مضت، قد تذهب بالنوم لساعات، تصحو بعدها، تندفع إلى دولابها، تخرج صندوقها، صندوق الذكريات كما أسمته، جاءت به من أحد محلات بيع التحف، والأشياء النادرة، اخترته مطعما بالصدف، تفتحه كل يوم بشكل أصبح آليا، تخرج ما به، الكروت المصورة التي تصلها كل أسبوع، لم يتأخر يوما عن إرسالها، لا يكتب سوى التحية والاطمئنان على دراستها وصحتها، كانت لا تراسله كثيرا، فقط بالمناسبات التي تعرف أنها تسعده، عيد ميلاده، الذى حرصت على معرفته منه، نقشته داخلها، أعياد المسلمين التي حدثها عنها، رمضان، عيد الفطر، عيد الضحى، الشيء الذى فاتها وتعض أناملها عليه، عدم الحصول على ارقام هواتف تعطيها فرصة الحديث معه، لم تغب صورته عنها، هناك ما يجعلها أسيرة التفكير الدائم به، تمسك كل كارت، تقربه من صدرها، تقبله، تتأمله طويلا، على مدار أكثر من ثلاث سنوات، وهى تعيش على الذكريات، تحث أمها على الانتهاء سريعا، هي بداخلها شوق لأن ترتدى شيئا من عالمه، بعد جهد مبذول انتهت الأم من تصميم ثلاثة أثواب، كل منها له تصميمة الخاص، أخذت ترتدى كل منهم، تقف أمام المرآة، الأم تزداد دهشة، كأن

الثياب قد صنعت لها وحدها، الابنة مبهورة، تشعر كأنها ذهبت إلى عوالمهم، طلبت أن تذهب باليوم التالي بإحداها إلى كليتها، داعبت الأم وجنتيها، هامسة.

- دعينا أولا نرى رد الفعل، من خلال حضورنا أي مناسبة، مهم هذا جدا جدا.

- حاضر يا مامي.

قالتها بامتعاض، ولكن لم يكن أمامها أية فرصة للرفض.

مرت أيام كثيرة، دون وجود أية مناسبة، كل يوم تلح، ولكن الأم لا تعيرها أدنى اهتمام، ذهبت لأبيها ربما يقف بصفها، اجلسها أمامه، خاطبها بهدوئه المعهود.

- لويزا، أمك تعرف ما لا تعرفينه، وما أسرع الأيام، تأكدي من أن ما قالته والدتك بصالحك، لا تريد أن تتعرضي لأي انتقادات خارج محيط علاقتنا من الأهل والأصدقاء، هؤلاء ممكن يتفهموا الأمر، أما الغير فلا نعرف رد فعلهم، أي أمر جديد يحتاج لخطوات هادئة، لا للقفز لأعلى السلم بقفزة واحدة، اهدئي وثقى أن غدا سوف تقولين إننا كنا ندرك الأمور بشكل كبير، ربت عليها، قبل جبينها.

هدأت فعلا، وعادت لحياتها العادية، بلا أية منغصات، أو ترك مساحة للقلق أن يخترقها.

الأم كانت تعد لمناسبة غابت عن رأس ابنتها، عيد ميلادها اقترب، هي بداخلها دهشة كبيرة لنسيانها هذا، ولكن هي بالسنوات الأخيرة ، تغير بها الكثير، شرود دائم، أحيانا كانت تشعر أنها تعيش بعالم آخر، عيد الميلاد اقترب، هي بالفعل أعدت له، بشكل مغاير للأعوام السابقة، طلبت من مؤسسه تختص بتنفيذ هذه المناسبات، بوضع تصور غير مألوف، كانت تتابع كل التفصيلات بدقه وسرا، أرسلت الدعوات بالفعل لصديقاتها، وزملاء عمل زوجها وأصدقائه، أرسلت للجد والجدة، للطرفين الذين يقيمون، بمانشستر، ويوركشاير، قبل يوم من الاحتفال، نادت على ابنتها، ضمتها وقبلتها كثيرا، الدهشة ارتسمت على صفحة وجهها، حدثتها.

- هل لهذه الدرجة تناسيت أهم مناسبة لدينا، عيد ميلادك.

ندت عنها آهة طويلة، ضربت رأسها بكفها الصغير.

- واو، كيف غاب عنى هذا، فعلا أمي أنا أعاني من فترة من حالة عدم توازن، لا أعرف تفسيرا لها، إعذريني.

- غدا عيد ميلادك، أعددت كل شيء، ترتدين أول ثوب، دعينا ننتقى إحداها نراه مناسبا للمناسبة.

عاودت الارتماء داخل أحضان الأم.

باليوم المحدد، ومن الصباح الباكر، بدأت الجهة المنوط بها بالعمل، حديقة المنزل تحولت لخلية نحل، ديكورات، إضاءات، ركن للموسيقى، ركن آخر لممارسة الرقص، بوفيهات، بعد المغيب، بدأ توافد الحضور، الأجداد جاءوا باكرا، كل منهم يسير الهوينا، متوكأ على عصاته، أطفئت الأنوار كاملة، الظلام ساد الأجواء، دقائق وأعيدت الاضاءة، لويزا تقف على درج المنزل ترتدى زيا، جعل كل الحضور يقف على قدميه، وبلا إرادة تعالى تصفيقهم، يصاحبه آهات وصيحات فرح ودهشة، التف حولها الفتيات المقاربات لها عمرا، أخذن بمراقصتها مع موسيقى مختارة من قبل، كانت مضيئة تلتف حولها فراشات بألوان مختلفة، الأم أيضا أصبحت تحت حصار الأسئلة، من صمم هذا، وكيف جاءت الفكرة، عندما أخبرتهم بأنها من قامت بالتصميم، لسابق خبرتها وهواياتها بهذا، حكت لهم لمحه عن الأزياء المصرية القديمة، الولع اشتعل داخل الجميع، طلبن تفاصيل أكتر، طلبن ان تصمم لهن أيضا أزياء بنفس التصميم، أو

تصميمات أخرى، وعدتهم بالتفكير في هذا لاحقا، هي كانت بحالة انتظار لرد الفعل لتعطى فكرتها إذنا بالخروج إلى حيز الوجود، فكرت بأثيليه متخصص بهذا النوع من الملابس، وما تراه يجعلها تسرع بالتنفيذ.

انتهت الليلة بكم كبير من السعادة، أسرعت إلى حجرتها، وقفت أمام المرآة، تلف وتدور حول نفسها، تتراقص، تشدو بأغنية تنم عن مشاعر جارفة تكتنفها، فجأة وجدت تجلس نفسها على حافة الفراش، تضع رأسها بين كفيها، تبكي وتتشنج، ألم شديد اعتراها وجع شديد، تمنت لو كان حاضرا، رغم أنها التقته مرات قليلة، إلا أنها تشعر أنه قدرها، نزعت الثوب بحرص كبير، ارتمت على الفراش، احتضنت إحدى الوسائد، راحت بسبات عميق.

باليوم التالي قررت أن ترتدى ثوب البارحة والذهاب إلى كليتها، بداخلها رغبة عارمة، لرؤية وقع هذا على رفقاء وطلبة الكلية، أصرت على السير على قدميها، كل أبصار المارة تلتفت إليها، تلمح على قسمات وجوههم كل ألوان الدهشة، البعض صفق لها، دخلت حرم الجامعة، سارت ملكة، أثارت الانتباه، اقتربت منها بعض صديقتها، صنعن دائرة حولها، أخذن بتحسس الثوب. أمسكت إحداهن بيدها،

تدور بها وسط الدائرة، عديد من التساؤلات تغادر الأفواه، يطلبن منها أن تعرفهن عل. صاحبة التصميم، يطلبن ان يشاركنها ارتداء نفس الزي، صرخت إحداهن.

- هذا سيكون صيحة جديدة بعالم الموضة.

عادت إلى المنزل تحمل وترتدى كل أردية السعادة، جاءتها مديرة المنزل، تمد يدها بمظروف، ارتفعت أهدابها، تحسست المظروف، ليس مثل كل مرة، لا يوجد به ما يدل على كونه كارت سياحي، أسرعت إلى حجرتها، لم تنتظر تبديل ثيابها، فتحت الرسالة، ورقة بها كتابات، بعضها بلغتها، والأخرى بلغة مغايرة، قدحت ذهنها لتصل لمعرفتها، تذكرت، إنها الهيروغليفية، لغة الفراعنة، شاهدتها بأحد المجلدات، ألقت بنفسها على فراشها، تمسك بالرسالة، تتشممها، وجدت نفسها تضحك ضحكات متتالية، ظنت أن هناك مسا بها، أغمضت عيونها لحظات، تنهدت مرات، أفردت الرسالة، بدأت بالقراءة وهى مسترخية.

- عزيزتي(لويزا)، وددت لو كتبت لك كلمة أخرى، أظنك تعرفينها وتشعرين بها، بلا استطراد، جرؤت وأسرعت للكتابة، ما بداخلي لم أعد أتحمل قمعه، أعترف وأنا بكامل الوعى، أنى منذ رأيتك، وجدت نفسى أمام حلم راودني

كثيرا، لا تندهشي، حلمت مرات كثيرة، بمن تحمل ملامحا تجمع بين الشرق والغرب، بمن أجد بها صورة الأميرة الفرعونية، أعيش معها أجواء هذا العالم الذى أخذني من أيام الطفولة، سنوات مضت دون لقياك، ولكنك تعيشين معي كل لحظاتي، طيفك لا يغادرني، يصاحبني اينما كنت، وأينما سرت، أعد الأيام، أنتظر أمر الله ان نلتقى، هناك أمر أسعى إليه لأراك، هناك دراسات جارية لإقامة معرض آثار مصرية بلندن، خلال شهور، أسعى بكل الجهد أن أكون من بين مشرفيه، وواثق أن الله سوف يساعدنا بهذا، اهتمي بذاتك، دوما تذكري أن هناك من ينتظرك.

أتركك برعاية رب العالمين، فريد.

عاودت القراءة مرات ومرات، تشعر كأنه بجوارها، وصورته تتراءى أمام عينيها، لم تدر بنفسها إلا أنها ذهبت بسبات عميق، تحتضن الرسالة، وجهها شديد الإشراق كأن الشمس قد تعامدت عليه.

الأم قامت باستئجار مكان بمنطقة راقية، بدأت رحلة تصميم أزياء فرعونية، مع إضافة لمحات تواكب الزمن، الطلب يزداد كل يوم، بيوتات الأزياء، الشركات الكبرى، سيدات المجتمع، شرائح أخرى، في غضون أشهر قليلة، ذاع صيت

الأتيليه، زاد إقبال وسائل الإعلام عليه، نشرت عنه بعض الصحف الشهيرة، هي من ناحيتها لازمت الأم، كل وقت متاح لها، عكفت على التعلم بكل تفصيلات عالم الأزياء، بخلال شهور كانت قد ألمت بكافة تفاصيل هذا العالم، حددت مسارا مغايرا لمسار الأم، اختارت أن تتخصص بأزياء الأطفال، الأطفال أكتر تعبيرا عن النجاحات، إن أردت معرفة حقائق أسرة، عائلة، مجتمع، تأمل صفحات وجوه الأطفال، تنبئك عن حقائق وخفايا، هذا العالم يستهويها بشده، بداخلها طفلة لا تكبر، بل طفلة تتجدد دائما كل يوم يمر بالأسرة، يضيف إليها مزيدا من السعادة، مازحهم الأب مرات.

- الغريب أنهم يرددون، لعنة الفراعنة، قول ساذج، المسمى الذي يجب أن يقال ويسود، بركة الفراعنة.

..11..

عَوْدَةُ الأفْرع

جاء أبناء الحاج (حسن الهميلى)، بهم هرولة، هم يلبون على الفور نداء الأب، يرون أنه ليس أبا عاديا، رغم كهولته، مازال يتمتع بذاكرة قوية، مازال حكيما بآرائه، الكل يناشد ويمنى نفسه أن يكون دوما راضيا عنه، وتحت رعايته، آتوا مهرولين مندهشين، لم يعتادوا هذه الدعوة العاجلة، كل منهم ينظر إلى المتواجدين مع الأب، تساؤلات تنضح على وجههم، أغلق بابها، بنظرة من عينيه، هم يفهمون نظراته، النظرة كانت تحمل رسالة، أن لا تساؤل إلا بعد تناول الطعام، بلا صدور أي صوت، التفوا حول الطعام، الذى أتت به عدد من النساء، تتباين أعمارهن، مؤكد هن زوجات الأبناء وبناتهم، وضع الطعام على أكثر من مائدة، تلقائيا التفت كل أسرة حول مائدة، أما مائدة الشيخ(حسن) توسطها، أشار إليهما بالجلوس معه، رفع يده طالبا كلمة.

- يا عم هناك بعض الأشياء بالسيارة، أرجو مصاحبة بعض الشباب (لفريد) لإحضارها.

بمجرد أن نظر بعينيه لبعض الشباب، نهضوا على الفور، أتوا بالأشياء وضعوها بمكان قريب من الجلسة، لم يتساءل أحد عن ما هي.

أخذوا بتناول الطعام، كل النظرات تصوب تجاههم، التساؤلات تثور وتموج داخلهم، انتهوا، أتتهم المشروبات، بدأ الأهل بالحضور، ازدحمت الحجرة رغم سعتها، البعض ظل واقفا، الحاج (حسن) توسط الجلسة، ملأ عينية من الحضور، يتحقق من وجود الكل، بدأ الحديث.

- حتى لا أترككم أسرى للدهشة والتساؤلات، أحمد الله ان مد بعمرى، حتى أرى ما تمنيته من سنوات بعيدة، لست وحدى من تمنى هذا، تمناه معي أخي المرحوم(حامد) وأختاي، رحمهم الله جميعا، هذان، رفع إصبعه مشيرا إليهما، (جلال) ابن عمكم (محمد)، الكثير منكم لا يعرف الكثير عن هذا العم، وهذا(فريد) ولده، عمكم ذهب للعمل بالصعيد من زمن بعيد، أكبر من أعماركم، كان يأتي على فترات، تطول وتقصر، كان أقرب الأبناء، لجدكم الكبير، ربما لأنه يحمل نفس الاسم، وربما لأنه كان أصغر أبنائه من الذكور، تزوج

عمكم بعد موافقة الجد، من بنات الصعيد، للأسف لم نحضر زواجه، جدكم وضع شرعا وميثاقا، أن تظل الممتلكات، أراضي، دور، أموال، للجميع، أن نظل أسرة واحدة، رغم هذا الميثاق، كتب على حياة عينه، لكل من أولاده، حصته من الممتلكات، وثقها، لم يخبرنا عنها، وكتب وصية، لدى محام، نصها باختصار، أن لا يقوم أيا من أولاده أو حتى أحفاده، وكان من الممكن ان يطلب أن يستمر الأمر أبد الدهر، مات الجد، وماتت الجدة، بعدها بأيام جلسنا سويا، فتحنا الأوراق والوصية، كلنا انصعنا للوصية، إلا (محمد) الذى أصر على بيع نصيبة، بحجة أنه غير متواجد بشكل دائم، وله حياته، حاولنا مرارا معه، رفض، ونحن رفضنا تنفيذا لوصية الجد، انفعل علينا، لوح بيديه في وجوهنا، وغادر زاعقا.

-أترك لكم كل شيء، ربنا يبارك لكم، والله معي، غادر ومن يومها لم نراه ولم نعرف عنه شيء، من كان يعرف كل شيء هو الجد، حتى من كان يعمل معه، رفضوا تماما تعريفنا بمكانه، مؤكد بطلب منه، عشنا أنا وعمكم (حامد) وعماتكم وجعا لا يمكن وصفه، ولكن أخذنا قرارا أن نرعى ما يخصه من ميراث، وأن نستثمره له، إن عاد يوما، أو عاد أحد من

أولاده، أو أحفاده، الحمد لله أن جعلني حيا حتى أستنشق عبير أخي من ولده وحفيده، عمرنا ما نسيناه، ما حدث منه كان أمرا لم نعتده منه، أشار لأحد الأحفاد بأن يذهب إلى حجرته، يأتي له بصندوق يوجد بدولابه، سريعا جاء بالصندوق، أخرج مفتاحا من جيب السديري الذى يرتديه داخل ثوبه، فتح الصندوق، تناول ورقه شديدة الاصفرار، مهترئة لحد كبير، مد يده إلى ابن أخيه به، ها هي وصية الجد، اقرأ ما فيها، الوصايا أمانات بأعناق حامليها، وغدا صباحا إن كنا من أهل الدنيا، بعد صلاة الفجر، نذهب معكم، نريكم أرضكم، تشاهدون داركم، التي حرصنا على إجراء صيانة لها كل فترة، احكِ يا بنى، كيف كان. هل كان يتحدث عنا، أم أنه قد جعلنا نسيا منسيا، فتح الورقة، مكتوبة بعناية، نصها أن كل شيء تم قسمته بالعدل والشرع بين الأبناء، شريطة عدم البيع مطلقا أو التصرف من قبل أحد، ويسرى هذا على الجميع، اعادها للعم بعد أن قبل الورقة، قال.

-عمى، بداية يكفيني أن أرى بهذه العيون والوجوه، هذا الترحيب، وهذا الحب، حتى وإن لم تقله الشفاه، صحيح لم ألتق بكم منذ كنت بالثامنة أو التاسعة من العمر، مرة وحيدة، عندما جئنا لنرى جدى، يومها وصلنا بعد تشييع جنازته،

بعدها بسنوات قليلة، ذهب أبى لحضور عزاء جدتي، ذهب وحيدا، كنت مريضا حينها، كما أخبرنا بعلمه بهذا من أحد أبناء العزبة، يعمل على مقربة منه، عاد بعدها بحال ليس حاله، انزوى، أصبح مثل الإنسان الذى يعيش بلا روح، كلام مقتضب، ذهاب وعودة من العمل، بلا حكى كما كان يفعل، حتى جلساته مع البعض تغيرت، يجلس شاردا، مجرد أنه متواجد، حاولت أمي كثيرا معرفة ما به، لم يتكلم، وكان ينهرها بعنف، قلنا ربما حزنه على الجدة، كنا نراه دائما بحالة بكاء، لأن الأم هي كل شيء لدى أي إنسان، كان بأحيان كثيرة ينتفض بكاء بشكل فجائي، لم يطل به الأمر، أربع سنوات، ذهب بعدها إلى خالقه، أنا وأختاي، عشنا مع الأم، أياما صعبه، ولكن هي لم تقصر، أنا وعن طريق أصدقاء أبى، عملت بذات عمله، استمرت بنا الحياة، صعودا وهبوطا، ولكننا ورثنا عن الأب والأم، ومؤكد منكم الصبر وعزة النفس، والحمد لله، لم تغيبوا عنى لحظة، كل ما أتذكره هو ضبابات من ذكريات قليلة، عشتها للحظات وسمعتها كثيرا، ذهب الأب حاملا معه. سبب حزنه وابتعاده، رحم الله الجميع، ولكنى كنت أشعر دوما أن هناك ما يشدني إلى أهلي وموطني، ولكن متى يكون هذا، أمر تركته لله، ربما هناك

سؤال يدور برؤوسكم، ولماذا الآن، لكم حق، ولكن لكل شيء وقته المحدد من الله، البارحة جاءني أبى بالمنام، وجه لي عتابا كبيرا لي، عنفني بشده، لعدم بحثي عن جذوري، عن أهلي، جئت متخوفا، مرتعشا، بداخلي حنينا إلى أبى بكم،

خفت أن لا أحد يتذكرني. أو يعرفني، أو يصل الأمر إلى الإنكار، ولكن الحمد لله، كان لأبى حق، بعتابه، بلومه، هذه كل الحكاية.

بلا أي توجيه نهض الكثير من أبناء العمومة الأحفاد، إلى عناقهم بحرارة، حتى أنهم بكوا، بعد هدوء عاصفة الترحيب، عاود العم الحديث.

-يا (جلال) حق أبيك موجود، الأرض، وريعها طول السنوات، حتى ما يخصكم من البيت، كله موجود، هو حقكم، ولكن الوصية سارية، أموالكم لكم، من الغد نحولها إلى حسابكم، أرضكم هي لكم إن أردتم أن تقوموا برعايتها، تحت إشراف منا، لأنكم لا تعرفون أمور الزراعة، بيتكم لكم أي وقت، أقمتم به، أو أتيتم على فترات، أمنيتي أن أجدكم هنا بيننا، بسنوات عمرى الباقية، تأتى بزوجتك وأولادك، تعيشون بين أهليكم، عامة أنتم عدتم إلى جذوركم، حكمة سمعتها عن أبى، لابد من تلبيه الجذور مهما تبعثرت أفرعها

وتشتت، الدماء لا يمكن أن تكون غير كونها دما، يسرى بكل العائلة، تدانت أو بعدت، أشار للبعض من أبنائه، أمرهم بإعداد سرادق ضخم غدا، وذبح الذبائح، دعوة أهل العزبة، وكل أصهارنا واقربائنا لمشاركتنا، تعالوا إلى، جلسا محيطين به، احتواهم بذراعيه، ضغط عليهم، يشعر بعنفوان، هم أيضا لاذا به، استشعارا وبحثا عن دفء انتظاره طويلا. طال بهم السهر إلى وقت متأخر من الليل، عندما أدخلهم أحد أبناء عمهم إلى حجرتهم، ناما على الفور كما لم يناما من قبل.

استيقظا على طرقات خفيفة، وصوت ينادى بخفوت، دعوهما للصلاة، خرجا، القيا السلام، دلهم على مكان الوضوء، بعدها صحبهما حيث وجدوا العم مستعدا لمصاحبتهم مع أولاده للصلاة، خرج العم واضعا ذراعيه على كتفيهم، يتحسسهم بين اللحظة والأخرى، كأنه يريد التحقق أنه واقع، ليس أضغاث أحلام، المسافة ليست بعيدة بين البيت والمسجد، المسجد واضح من بنيانه أنه على مساحة كبرى، لافته رخامية تعلوه، مسجد(التقوى..آل الهميلي)، بجوارها صورة كبيرة للجد، نفس الصورة التي رآها مرارا بحجرة أبيه، والتي لا يعلم أين اختفت، أديا الصلاة والسنه، جلسوا حلقة يرددون بعض أذكار الصباح، الكل من رواد المسجد

يهرولون إليه، شبابا وشيوخا وبعضا ممن تجاوز أعمار الطفولة، يقبلون يده، كتفيه، يضع يده على الرؤوس، يتمتم بالدعوات لهم، يقدم ابن أخيه وولده للكبار، ممن يتذكرون الأب الراحل، غادروا، سار بهم إلى المقابر، وقفوا أمام الشواهد، يقرأون فاتحة الكتاب وبعض قصار السور، أثناء السير يحكى لهم عن الجد والجدة، عمه، عماته، أبيه وأيام طفولته، ذهب بهم إلى الحقول رغم الحاح الأبناء بان يكتفى بهذا، لظروف صحته، أبى تماما، زاعقا، دعوني أشبع من أبناء الغالي، لست متعبا، طوال الطريق، يحكى لهم عن الكثير من حكايات الأهل، الأبناء الأحفاد لمحوا جديدا على وجه الأب والجد، سطوع الشمس على وجهه، لمح بعيونهم الدهشة، الروح عندما تهدأ وترتاح، تكون بهجة على كل الجسد، وقف أمام أراض منبسطة، كلها خضره، قمح، فول، برسيم، مساحات شاسعة، أشار إليها، هذه أرض توارثنها أبا عن جد، أخذنا عهدا أن تزداد، لا أن تنتقص، جدك نرك لنا اكثر من ثلاثة عشر فدانا، تم توزيعها على ورثته، دون أن تتفتت، كل يعرف ما يخصه، لكن تزرع من الكل ، والعائد يوزع بالعدل، ما يخص أبيك، زدنا عليه كل عام، الآن بعد كل الزمن الذى مر، أصبح نصيبكم يقارب العشرين فدان،

كنا نشترى من بعض العائد، وما يتبقى نجنبه حتى تخطى الآن، المليون جنيه او أكثر، كله مثبت، لكم مطلق الحرية بالتصرف بالأموال، أما الأرض، تبقى كما هي، حسب الوصية، انعقدت ألسنتهم، لم ينبس أحدهم بحرف، ما هذا الميراث العائلي، الذى لا يبخس أحدا حقه، حتى لو كان غير معلوم صاحبه، من عقود طويلة، فعلا الأعراف والأصالة، تزرع من البدايات، ولا تتعرض لموجات التغير، وجد نفسه يرتمى على صدر عمه، يقبله بشده،.

-يا عم، لم نحضر بحثا عن أرض ومال، جئنا بحثا عن جذورنا، عن أرض صلبة نقف عليها بثبات، عن دفء عائلة، نحن عشنا بين أهل، كانوا فعلا يشعرننا بهذا، ولكن كنت أشعر أنى إنسان غير مكتمل، كمال الفرد بناسه، بأهله، هو من صلبهم، أقول لكم بما أحس الآن، ولا تتقولوا على، أنى ابالغ، لا والله، أحس كأني الآن حصلت على هويتي، على انتماء حقيقي، أريد أن أصرخ بكل العالم، معلنا اسمي كاملا.

-(جلال محمد محمد الهميلى).

(فريد)، وجد نفسه بحالة تقارب، مع من يقاربونه عمرا، أخذوا جانبا، وجد من بينهم، أطباء، محاسبين، مهندسين،

ومن هو من رجال الجيش والشرطة، أحس كأنه يعرفهم من قبل، الحوار جمع بينهم حول كثير من الأطروحات، والأفكار، لا يوجد تعارض أو تضاد بين أفكارهم، طلبوا منه أن يجلسوا بعد الانتهاء من الاحتفال، يسهرون، يتكلمون عن أنفسهم، عن أحلامهم، وافقهم الراي، ألقى إليهم الجد، نظرة باسمة، قال.

-حقا، النبض ينادى النبض.

عادوا إلى البيت، خطواتهم تنبأ عن أن بهم سعادة لا توصف، جلسوا إلى الإفطار، يتأولونه بين الضحكات، وبعضا من حكايات، متبادلة بيهم، انتهوا، غمز بعض الشباب (فريد) بأن يذهب معهم، فهم الحاج محتواها. علت ضحكته، هيا اذهب معهم، كل إنسان يبحث عن من يشبهه، وأنا أرى بكم تشابها كبيرا، هرولوا آخذين طريق الصعود للسطح، السطح متسع، به ركن معد للجلوس، مغطى بشكل هرمى، بقرميد قرمزي اللون، به عدد كبير من الارائك الخشبية، المكسوة بشكل راق، متميز، ألوان زاهية، السطح ممتلئ بالزهور، أخذوا يتبادلون الحكايات والأحلام، وكيفية تفسيراتهم لبعض أحداث البلد، انفتحت كل الصدور بلا أي تخوفات، هم وهو يشعرون كأنهم على معرفة سابقة، أزيلت الحواجز، حكى لهم عن

(لويزا)، الكل أجمع على أنها له، انها نداء وعليه تلبية النداء، وأن يسرع، هناك أمور لا تقبل ومن التأجيل أو التقاعس. تواعدوا على أنهم بعض الاحتفال، يخرجون ويذهبون إلى مدينة طنطا، والتجول بها، والجلوس على مقاهيها، والدخول لضريح السيد البدوي، تشابكت أيديهم تأكيدا على الاتفاق.

عند مغيب الشمس، كان السرادق معدا، بعد أذان المغرب، بدأ أهل القرية بالتوافد، وبعدها وفود أعيان القرى المجاورة، الحاج(حسن)يجلس على كرسيه، يجاوره(جلال)، وبعضا من أولاده، في استقبال المدعوين والترحيب بهم، بدأ الاحتفال بالقرآن الكريم، نهض الحاج للحديث.

-نرحب بأهلنا وبضيوفنا، هذا الحفل من أجل ابن أخينا الراحل(محمد) ومفيدة، الكثير منكم لم يعرفه، غاب عنا عقودا كثيرة، والحمد لله أن احيانا حتى نلتقي بثماره، شرفتم ولكم التحية.

رقص خيول، مزمار، رقصات من الشباب، موائد طعام متعددة الصنوف، الكل عاش ليلة سعيدة، وجد عند العاشرة انتهى الحفل، انصرف الجميع، طلب الشباب الإذن بالذهاب إلى طنطا، للتجول قليلا. ركب البعض بسيارة(فريد)، والبعض الآخر بسيارة أخرى، جلسوا على القهوة الأحمدية،

القريبة من ضريح (السيد البدوي)، يتبادلون الحديث والنكات والقفشات والضحكات، تجولوا بشوارعها، طنطا مدينة تتمتع بصفات وروائح الريف، مع مواكبة معاصرة لمستجدات الأزمان، عادوا بعد منتصف الليل بساعات، ألقى كل منهم نفسه على فراشه، ذهب بسبات عميق، عندما تمسك بخيوط السعادة تذهب عنك كل أسباب المعاناة.

طال مكوثهم لثلاثة أيام أخرى، كل يوم يحيطهم العم بذراعيه، يسير بهم بين شوارع القرية، يتوقف أمام بعض الدور، يحكى لهم عن أصحابها، السابقين والحاليين، وعلاقاتهم بهم، يدخل بهم إلى دور الأهل، الترحاب الشديد يستقبلهم، يتبادلون الأحاديث والحكايات من قريب وبعيد، بالعشية الأخيرة، جلسا مع العم، منفردين، خاطبة الأب.

-يا عم، أرجو منك أن تكلف البعض أن يقوم بتجديد البيت، داخلا وخارجا، وإعادة تأثيثه، لأني بأمر الله سوف أتواجد كثيرا هنا، أعود إلى جذوري، سوف اتنقل بين هنا وهناك، هناك أيضا أناس أصبح لهم جذور بالمكان، ثق أنى بعد هذه الأيام، ان أفرط أبدأ بجذوري، دعني أقبل يديك، عاد إلى الأب معك.

ضمه العم إلى صدره، مرر يده على شعره، كأنه طفل صغير.

-نحن لن نتركك تغيب، أو تطول غربتك، أنتم أعدتم لي عافيتي، بارك الله بكم.

تململ(فريد) بجلسته، يفرك يديه، تتنقل عينيه بين الجد والأب، مما دعا الأب لسؤاله.

-ماذا بك، قل ما بداخلك، أنت مع جدك، يرشدك بحكمته.

اتجمع شجاعته، وضع رأسه إلى أسفل خجلا.

-يا جد أود مشورتك بأمر يخصني، لدى بعض

البلبلة بالقرار، أبى مؤكد عرف مقصدي، أخذ يحكى للجد قصته مع(لويزا)، لم يخف شيء، تبسم الجد، أشار إليه بالقرب منه، ربت عليه كثيرا، وجه نظره إليه.

- اعرف يا ولدى أمرا يكون دوما بخاطرك، أن الأقدار تنادى أصحابها، مهما طالت الأزمان، وبعدت المسافات، الأقدار أمانات مؤكد تعود لأصحابها، حسبما يأمر المولى، وحسب توقيتاته، هذا ردى، وأظنك وعيت وفهمت المعنى،

أجاب بأنه فهم المراد، عاود الحديث.

-لدى مقترح. أسافر بعد فترة، أجلس مع عائلتها، ألمح لهم برغبتي، إن وجدت ترحابا، أوجه لهم دعوة بالزيارة، أعرفهم عن قرب بمجتمعنا، وأيضا أتى بهم هنا، لمعرفة عائلتي، وأيضا لأعرف بحكمة الجد قراره، الذي مؤكد يضيء لي الطريق.

وافقاه، طلبا السماح لهم بالمغادرة، بالصباح وقف الكثير مودعا، بريق دموع يحتل بعض العيون، تلويحات الأيدي استمرت حتى غابت السيارة عن الأعين.

..12..

الصُّعُودُ إلى الحُلْم

..أصبحتا أسيرتين لعملهما بعالم الأزياء، الوقت لا يسعفهما لأمور أخرى، (لويزا) تجتهد للتوازن بين العمل والدراسة، كلاهما تعشقهما، تحب التميز بهما، لحظات قليلة، تستقطعها ليلا، لمعاودة مشاهدة رسائله، لا يغب عن فكرها مطلقا، بالأيام الأخيرة، غمرتها السعادة حينما طلب منهما أزياء لأكبر بيوتات الأزياء بمصر، سعادتها جاءت من شعورها أن كل شيء يقربها ويقربه منها، تمنت لو جاء وشاركها

نجاحاتها، تنتهى اللحظات بتنهيدة عميقة، النجاحات أشعرتهما بأنهم عادوا سنوات للوراء، الأم بدأت رحلة البحث عن المزيد من القراءات التي تهتم بعالم المصريات، حتى الدكتور، أصابه نفس الهوس، فقط كان هوسه بالجانب السيكولوجي، السيكولوجيا تعطيك تفسيرا لكل الأمور الحياتية، كيفية التفكير، كيفية الأحلام، بالتأكيد كانوا يعيشون بلا منغصات، الأدلة تقول هذا، من يصنع هذا التاريخ، بكامل مشتملاته، من يصنع هذه الحياة الأقرب للمثالية، لابد وأن يكون بعيدا عن أي تعقيدات نفسية،

..على مدار شهور، تعددت زيارات(جلال) إلى العزبة، وحيدا أو برفقة زوجته وابنتيه وأحفاده، ، صاحبته (بخيتة) لمرة، نالت من الحب الكثير، سمعوا حكاياتها، تعالت ضحكاتهم من طريقة الحكي المصاحب بحركات الجسد، عند المساءات تجلس وسطهن، تغنى الأغاني الصعيدية والنوبية، بطريقتها ولكنتها الجميلة، علمتهن صنوف من الأطعمة الصعيدية، الألفة سادت بينهن، حتى إنه حال مغادرتها، يجدن أنفسهن يودعهن ببكاء ودموع، (فريد) تقارب لحد كبير مع أبناء عمومته، تزاور مع من يعمل بالقاهرة، تعرف إلى

أسرهم، شعر أنه يعرفهم من زمن، وليس من شهور، أصبح له إخوة، وعزوة وسند.

عشية ليلة من الليالي، جلس بين زوجته، وبنتيه مع زوجيهما ، عرض عليهم أمرا كان يجول بداخله من فترة ليست بالقليلة، أن ينتقلوا للمعيشة بالعزبة، لديهم ارضا مساحة كبيرة، يستطيعون زراعتها، والعيش برغد من ناتجها، والبيت جاهز، يمكن إضافة بعض الأدوار عليه، أو يضيفوا إليه أدوار جديدة، قال لهم.

-ثقوا أننا لن ننسلخ عن هنا، البيت وبيوتكم ستظل موجودة، نعود إليها كل فترة، هنا أيضا لنا جذور وذكريات، لا نستطيع التخلي عنها أو نسيانها، دعونا نخوض التجربة.

وافقه الجميع بعد شد وجذب، هم شاهدوا بأعينهم الأرض وزراعتها، وأيضا حميمية العائلة، التي تعاملت معهم كأن الزمن لم يفرق بينهم.

..بعد شهور من محاولاته للحصول على إجازة، للسفر للندن، جاءت الموافقة على منحه أسبوعين، سارع للحجز على أقرب رحلة طيران، مر على خان الخليلي، ذهب لأحد ممن يقومون بالرسم، جلس أمامه، يصف له ملامح (لويزا)،

طال الوقت حتى وصلا إلى صورة قريبة الشبه بها لحد كبير، أخذها ذاهبا لأحد معارفه من أصحاب البازارات، طلب منه وضع الصورة على الكثير من ورق البردى، بزوايا متعددة، أوصى على بعض المشغولات النحاسية، بنقوش فرعونية، طلب نقش صورتها على طبق نحاسي مستدير، أخبره أنه سيمر عليه غدا بذات التوقيت، يكون انتهى منها، أراد مفاجأتها، لم يرسل إليها موعد وصوله، كان قد أخبر أباه بسفره، كما اتصل بالجد (حسن)، الذى دعا له بأن يكون الخير مصاحبا له، داعبه بالقول، يبدو أن القدر قد أقترب من الوصول اليك.

..بعد ساعات من تحليق الطائرة، قضاها غافيا حتى لا يتململ انتظارا، وصل إلى مطار(هيثرو)، خرج مسرعا طالبا تاكسي، أعطاه العنوان، الوقت كان نهارا، هو قرر أن يصل بوضح النهار، قرابة النصف ساعة، توقف التاكسي، دق الجرس، خرجت إليه مديرة المنزل، أخبرته بعدم وجود أحد، أعلمته أنهم بالأتيليه، طلب العنوان، ، دقائق وكان يقف به أمام الأتيليه، لف ودار حول فترينات العرض، الذهول أصابه، أزياء بتصميمات فرعونية، مع لمسه معاصرة، يا الله ما هذه المفاجأة، أراد مفاجئتها، فكانت مفاجأتها أشد، لمح

طيفها من وراء الحاجز الزجاجي، كانت توليه ظهرها، طرق طرقات خفيفة على الزجاج، مرة وأخرى لم تنتبه، عاود الطرق أقوى، التفتت، ما إن رأته، حتى اندفعت بشيء من التهور، حتى أنها كادت أن تنكفئ على وجهها، فتحت الباب، أسرعت إليه، عانقته، انثالت تقبيلا له، لم تبال بأحد، الصيحات تتعالى صارخه.

-اووووووه، ما أجمل هذا اليوم، صدقني أنك بهذا الصباح راودت صورتك فكرى طويلا، أكثر من أي يوم آخر، يا الله، كم أنت بديع يا لله.

قذف بحقائبه، احتواها بين ساعديه، رفعها من على الأرض، أخذ يدور بها، يبعثر شعرها على وجهها، كان يتصرف بصبيانية لم يعتدها حتى وهو طفل صغير، جذبته من يده إلى حيث أمها، التي وقفت تشاهد، وكل قسماتها تحمل سعادة ودهشه في آن واحد.

أسرعت به إلى حيث تقف الأم، التي أسرعت بعناقه، مال على جبينها مقبولا له، لثم يدها، عيون الأم تقول الكثير، أن الكل كان بانتظاره، هم لديهم يقين غير معلن، أنه قدر ابنتهم، يكفي أن يروا هذا الكم من علامات الحبور، تعتلى قسمات ابنتهم، صدرها يكاد يخرج قفصه، يصرخ، ينتفض، يقول

لكل العالم. إنه قاربي، إنه شاطئي، إنه الحلم، التقطت حقيبتها سريعا، هرولت به إلى الشارع، غير مبالية بعلامات الدهشة التي لاحت بملامح أمها، الأم التي تمتمت.

-يا لك من مجنونة، ولكن لك حق، الحب إن لم يكن به جنون، وجنون جامح لا طعم له، اللهم كن مع سعادتها.

..أمسكت بيده، رفضت أن يستقل تاكسيَ، طلبت منه أن يستجيب لرغبتها بالسير على الأقدام، بكل الشوارع، تريد أن تشهد الأماكن، على سعادتها وحبها، طوال السير تتقافز، تدندن بأغنيات مغلفة بالحب، كان يسير، يشاركها القفز احيانا، يشاركها الدندنة بلغته، أحيانا النغمات تكون أكثر تعبيرا عن الكثير مما يعتمل داخل الصدور، ذهبا إلى(البيكاديلى، وإلى (الطرف الأغر) والحمام بألوانه المتعددة، متناثر بكل ارجائه، داعبوا الحمام، ذهب إلى محل زهور قريب، أتى بطوق من الورود، طوّق جيدها به، مال على أحد العازفين الكثر بالمكان، سأله، هل يعرف ويجيد عزف موسيقى عربيه، أومأ له بالإيجاب، همس له، طالبا، احكى يا شهر زاد، الف ليلة وليلة، قولي أحبك، على الترتيب، بدأ العزف، العازف انصهر وأنا لم مع الموسيقى، أخذ يتمايل يمينا ويسارا، يلف ويدور حولهم، أخذت تراقصه

على النغمات، بصورة أذهلته، خطواتها الراقصة متجانسة مع الموسيقى، التف حولهم عدد من المتواجدين، من كل الأعمار، تصفيقا ورقص، طال رقصهم، العازف يعيد مرات بمعزوفاته، جلسا على أحد الأرصفة، إيذانا برغبتهم بالكف عن الرقص، منح العازف مبلغا فوق طلبه، يكفى أنه أشعرهم بهذا الكم من الأحاسيس الفياضة، سارت به إلى أحد المطاعم القريبة، هي تشعر أنها جوعى جدا، ومؤكد هو أيضا، جلسا على مائدة قريبة من مشاهدة الشوارع الملاصقة له بشكل(بانورامي)، تركته، ذهبت إلى المطعم، أخذت المسئول جانبا، طلبت منه إعداد وجبه، كباب وكفته ولحم مشوي على الطريقة وبالنكهة المصرية، مع الإكثار من التوابل، وسلطات متعددة الصنوف، هي كانت قرأت كثيرا عن الوجبات المصرية، وطريقة عملها، بل قامت بعمل بعضها، قدمتها لأسرتها التي نالت إعجابهم بجمالها، أتى الطعام الذى فاجأ (فريد)، لمحت التساؤل على باب شفتيه، أمسكت بكفه، داعبته، صوبت عينيها إليه، ابتسمت، همست، لأجلك أنت أبحرت بالحياة المصرية، ربت على يدها سعيدا، كان يأكل بشهية، المذاق هذه المرة مختلف، مذاق به جو شاعري بصدق، انتهوا، أخذا الطريق للعودة، رفض تماما فكرة أن

يعودا مترجلين، مجرد ان دخلا الأتيليه، حتى أسرعت من فورها إلى الأم، عانقتها، الأم أحست بنبض ابنتها ينتقل إليها، هي ترى وتحس أن الابنة تعيش لحظات صدق متناهية، قبلتها من طلبها مرارا، وجهت نظرات شكر له، طلب منهما ان يأخذ حقائبه، ويذهب لأحد الفنادق، وعند التاسعة مساءا يعود إلى منزلهم، هو بحاجة لهم جميعا بأمر هام، ويتمنى أن يجد الدكتور(تشارلز) متواجدا، أرادت مرافقته، رفض، مال عليها هامسا، لكل شيء توقيته، ويجب أن نعطيه حقه.

قبل أن يغادر صاحت به الأم.

-نحن بانتظارك على العشاء.

أشار إليهما باسما، ملوحا بيده ما يفيد أنه مؤمن على دعوتهما.

دخل إلى حجرته بالفندق، ترك حقائبه جانبا، أخذ حمامه الدافئ، القى بنفسه على الفراش، أغمض عينيه، استرجع كل الساعات التي كانت معها، بعدها وجد نفسه ذهب بسبات عميق، لعلها المرة الأولى من سنوات التي يلبى نداء نوما بلا أرق أو أي نوع من الألم.

..عند التاسعة تماما، هو من خلال عمله تعلم احترام الوقت، يمنحك أحلامك بلا أي تلكؤ، كان مؤمن أن الإنسان يجب أن لا يفلت لحظة من عمره، لابد أن يسعى إلى تكون لحظاته إضافات، تعطيه مزيدا من التصالح النفسي، عندما نصل إلى مسافة قريبة من التصالح النفسي، تصبح الأحلام والأهداف قابلة للتنفيذ، إلى أن تصبح واقع ملموس، لا مجرد خيالات وامنيات، دق جرس المنزل، حينما كانت دقات الساعة العتيقة، التي حدثته عنها، ترسل دقاتها بنغمة دقات ساعة(بيج بن) الشهيرة، فتح الباب عن وجهها، ترتدى ثوبا حريريا وردى اللون، يعلوه روب من ذات اللون، شعرها معقوص على شكل زهرة، اندهش، ما هذا المصفف الماهر الذى استطاع ترويض شعرها، وتشكيله على هذه الهيئة، أمسكت يده، تسمر بوقفته، لا يدرى سببا لهذا، انتبه على صوت الدكتور(تشارلز) قادما، صوته يسبق خطواته، يرحب به بحرارة، على غير عادات الشعب الإنجليزي، سعيد نموذج لكلمة ما قل ودل، مد يده مصافحا بحرارة بكلتا يديه، عانقه الدكتور، للمرة الأولى يشعر بحميمية الأشياء معهم، أشار له إلى الجلوس بقاعة الصالونات العديدة بالحجرة المتسعة، كل ألوانها متناسقة، تنم عن حس وذوق فنى متميز، جلس، أتت

الأم مرحبة به، أحاطوا به، تناول الحقيبة، فتحها، بدأ بإخراج خطاياه، أخرج عباءة رجالية بها تطريزات فرعونية، قدمها للأب، الذى تأملها بشيء من الإعجاب والدهشة، شكره بكلمات مقتضبة، تحمل معان كثيرة وكبيرة، قدم للأم، مكحلة ذات تصميم نحاسي، نقوش دقيقة بها، مطعمه بالعاج الأفريقي الذى انتقاه بعناية، أخرج أول بردية، التي تحمل ملامحها واسمها، لم تجد رد فعل سوى أن تهرع إليه، تعانقه، وتمنحه قبله على جبينه، أشار إليها بأن تنتظر، أخذ يخرج البرديات التي تحمل ملامحها بزوايا مختلفة، آهات الفرحة تخرج من صدرها مغردة، أخرج الطبق النحاسي المستدير المحفور بداخله، صورتها مع ألوان اعطتها تمايزا وابرازا لملامحها بشكل لا يصدق، الكل كان يبدى إعجابه ودهشته، أخذهم الحديث إلى مناحي شتى، مصاحب بسعادة أطلقت هيمنتها على الجلسة، جاءت إليهم مديرة المنزل، تعلنهم ان العشاء جاهز، العشاء كان شهيا، تناوله مغموسا بحب، أتت لهم عصائر، هم حرصوا على عدم وجود مشروبات روحية، احتراما له، دار الحديث حول أمور شتى، تتخللها ضحكات، ونكات، وقفشات مرحه، حكى لهم عن رحلتهم لمسقط الرأس، عن تدفق المشاعر دون تحفظات،

عفوية وصدق، قلوب تنفتح لقلوب، لقاء القلوب هو الصادق بلا أي رتوش. طلب منهم الاستماع اليه.

- لن أزيد أي مقدمات، أنا منذ أن أتيت إلى زيارتكم بالمرة الأولى صحبه أستاذي (د.زاهر الحباك) وأنا أجد نفسي مشدودا إليكم، بكاملكم، أشعر كأني عشت وسطكم، لذا أتمنى أن أكون زوجا لكريمتكم(لويزا)، هذا إن منحوتموني هذا الشرف، لا أتعجل الرد، فقط أبديت رغبتي، خذوا وقتا للتفكير، إن حظيت بموافقتكم، قبل أي شيء أدعوكم على أرض الواقع لزيارة ببلدي، ترون حياتي، مجتمعي، وبعدها يكون قراركم النهائي.

لمعت العيون، تضرجت وجنتاها، تبادل الجميع النظرات، خاطبه الأب.

-(فريد) أنت رجل جدير بالاحترام، لا تعرف أساليب الالتواء، لم تبحث مثل الكثيرين عن علاقات بطابع النزوة، أشكرك على احترامك لنا، يشرفنا، وأنت وضعت أمرا، هو أن نأتي، نتعرف على مجتمعك، على عالمك، على أهلك وناسك، طقوس حياتك عن قرب، وهذا أمر جيد، أنت رجل تتعامل مع الأمور بعقلانية ومنطقية، وبشكل أقرب للتعامل السيكولوجي، وهذا بحد ذاته ينبئ عن ثراء إنساني، (لويزا)

تنهى امتحاناتها النهائية عند بدايات أغسطس، نحن الان بيونيو. يعنى شهران، نعدك قبل بدايات سبتمبر نكون على لقاء، مبدئيا أجد بعيونها ترحابا. ولكن لننتظر ونتمهل، حتى تكون كل الأمور عن طيب خاطر.

ودعهم بكل أطر التقدير والسعادة، وطلب فرصة اللقاء معها خلال فترة تواجده بلندن، مع الحرص على عدم الإخلال بعملها أو دراستها.

عاد مفعما بالأمل، بالسعادة التي أحسها غير منقوصة، تمنى لو أن أبيه وأمه معه الآن، يشاركانه الفرحة، قضى الأيام التالية بالتنزه والتجول، ارتاد كل أرجاء لندن، حتى أحياء الصعاليك والبهيمين، تجول بشوارع وحوارى وأزقة المدينة، كل المدن تتشابه، حتى أسلوب الحياة بتشابه، يختلف فقط في كيفية التعايش.

..رغم سعادته وتفاؤله، رغم تمنيه أن يظل لوقت طويل بجوارها، الأيام التي قضاها بصحبتها قربت المسافات بينهما، التفاهم، الفكر، المشاعر، كانت نسبة التوافق تفوق المنتظر وبهذه السرعة، رغم ذلك كله، لم يطق الصبر على إكمال إجازته، أخبرها أنه يريد العودة، ليلقى بسعادته في صدور أبيه وأمه، السعادة تكون أكثر بهجة حينما تزداد

مساحتها اتساعا، وتجد من يرحب بها، بكت وترجته ان يظل لأيام أخرى، ناقشها، أخبرها ان هناك أسباب اخرى للعودة، تدور برأسه أفكار عده، يريد أن يستبق الأحداث والزمن، لترتيب حياتهما القادمة، استسلمت رغم دموعها، قبل يديها هامسا لها، هو غياب مؤقت، بعده لقاء يكون أبديا، رافقته حتى المطار، قبل صعوده الطائرة، عانقته بشدة، وضعت زهرة قانية اللون، بجيب قميصه، لوحت له مودعه.

..أسرع فور وصولة بالذهاب إلى قريته بالصعيد، طرق الباب طرقات منغمة، فتح الأب الباب، ألقى بنفسه بين أحضانه، أخذ يقبله بلهفه، تشابكت أيديهم، أخذه إلى الأم، التي كانت أمام الفرن، هي وابنتاها، يقمن بأعمال الخبيز، على مقربة منهم يجلس الأحفاد الصغار، ما إن شاهدت ابنها حتى قذفت بنفسها ناهضة، أخذته في صدرها، لم تبال بما تحمله ثيابها من تناثر الدقيق وبعض قطع العجين عليها، رحب بضحكاته بتناثر الدقيق على ثيابه، هو يريد أن يجد ترحابا من كل محيطه، حتى لو كان جمادا، عانقته بشدة، انتقلت سعادته إليها من دقات قلبه، الجميع أحاطه، تشابكت أيديهم، بلا سابق ترتيب أطلقن الزغاريد، طلب منهن إنهاء الخبيز، يريد الجلوس معهم، منحوه الموافقة بنظرات العيون

المتبادلة، قبل خروجه، مد يده، اختطف رغيفا ساخنا، على طريقة الصغار، أخذ يلتهمه مع إطلاق ضحكاته، ألقت الأم كلمات على سمعه.

- يبدو أننا بانتظار أمطارا غزيرة من السعادة، حمدا لله.

أسرعن بالانتهاء من أعمال الخبيز، سكنتهن الرغبة بأن يسمعن لحكاياته التي تنطق بها ملامحه، تحرر من ملابسه الرسمية، أخذ حمامه الذى يجمع بين سخونة الماء وبرودته في آن واحد، ارتدى جلبابا ناصع البياض، جاور أبيه، اكتفيا بتبادل النظرات، هو يعرف ولده، يحب تجمع الكل حين تبادل الأحاديث، يريد أن يرى مردود حديثه على صفحات الوجوه، الوجوه مرآة شديدة الصفاء، تظهر كل الأمور على حقيقتها، دون رتوش أو أي عمل من أعمال الميكياجات والتجميل، والأجمل أن ترتدى حلة الصدق تماما، إن أردت معرفة من أنت، أنظر لنفسك بعيون الأخيرين، أتوا على. عجالة، ثيابهن مازالت مزينة بالدقيق والعجين الملتصق بأجزاء منها، صنعن دائرة وهن يجلسن أرضا حول الأب والابن، شخصت أنظارهن على سعتها إليه، يتوسلن لشفتيه أن تنطق، تحكى، هو أراد زيادة مساحات اللهفة، صمت تماما، يتنقل بعينيه بين الوجوه، داعبت أمه ساقه، تكلم باسما،

حكى لهم كل عن أيامه، وضع أمام أبيه تصوره للأيام القادمة، عن ترتيب زيارتهم، وبرنامج الزيارة، أشار عليه الأب، بضرورة تعريفهم كل التفاصيل بطبيعتها، نصحه أيضا أن يأخذهم يوما لزيارة العائلة، توافقا على غالبية التفاصيل، مع ارجاء الأمور حتى قرب وصولهم بفترة مناسبة، يرى على الوجوه علامات الفرح، نهض إلى حجرته، أتى بمغلف، عاد للجلوس معهم، أعطى المغلف إلى أبيه، الأب أخذ يستخرج بعض الصور، ينظر إليها، واحدة وراء أخرى، يناولها للأم، انتقال بين الابنتان، الحفدة تشرئب أعناقهم، الأم تأخذ وقتا طويلا بالنظر، لم تصدر عنهن أي تعبيرات، أثار هذا حفيظته، ولكن عند آخر صورة، الأم نظرت اليه طويلا.

- ما هذا الجمال والحسن الفائق، بسم الله ما شاء الله، هل أنت واثق من أنها تقبل العيش هنا.

- لن أعطيك إجابة الآن، الإجابة عندما تشاهدينها، هي من تجيبك بعفويتها التي يندهش، لا تتعجلي، فقط دعواتك حتى تكتمل الأمور.

-الله يعلم أنى أدعو لك بكل وقتي.

قبل يدها ورأسها.

- دعواتك زاد أيامى، ربنا يعطيك عمرا حتى أظل تحت ظلال دعواتك.

داعبهن الأب.

-هل نظل بالحديث، والحكي، وننسى حاجات البطون، هيا انهضن أعدوا لنا الطعام، (فريد) بحاجة إلى أن يستعيد ذاكرة طعامنا.

-وهل بتصورك أبى، أنى مهما سافرت، أنسى أطعم وأشهى أكل من يد أمي، صاحبة أجمل اكل بالعالم، تعرف يا أبى، بسفري، يكون هاجسي الأول، كيف أبتعد عن طعام أمي.

تعالت الضحكات، مضت الليلة شديدة الصخب، بين غناء، ورقص، وزغاريد.

..13..

نَبْشُ المَاضِي

..كل ليلة، قبيل الفجر، طقس لازمه طوال عمره، لم يغيره ليله واحدة، ينسل من فراشه، يلقى نظرة على (بخيتة)، يتحقق من نومها، من تصاعد وهبوط صدرها، يخرج على أطراف أصابعه، هي رغم نومها العميق، إلا أنها تشعر بدبيب النملة، أحيانا يصعد إلى السطح، وأحيانا يجلس على أريكة بجوار باب الخروج، يخرج علبة سجائره، ينفث دخان اثنتين أو ثلاثة من سجائره، الدخان من صدره، كأنه يخرج ما بداخله من سؤال حائر، يسكنه من سنوات صغره، لم يغادره هذا التساؤل على الإطلاق، لم تجرؤ زوجته يوما على سؤاله، عما به، تعرف أنه لن يفصح إلا أن أراد هو،

أما إن ضغطت عليه، فلن تجد الا عصبية حادة وزمجرة، فلم تسأل، كثيرا، ما يأتيه مشهد أبيه، وعلى وجهه كل الهم، حتى وهو بلحظات صخبه مع زملائه، كنت تلمح بعينيه أسى، ظن أن هذا يغادره بعد زيارة العزبة، وسماع المبرر من عمه، عن سبب غربة أبيه، وعدم وجود تواصل معهم، ما الذى دفعه للعمل ومغادرة بلدته رغم يسار أسرته، حتى أنه مات، ودفن ببلد أقام بها، المبرر هدأه قليلا، لأيام وعاود وخزه من جديد، يتنهد راجيا أن يأتي يوم ويجد إجابة تقنعه، هو يحمل كما كبيرا من التعاسة بسبب عدم إيضاح الرؤية لديه، رغم ملامحه البشوش دوما، حقا لا يشعر بالتعاسة الا حاملها. او كما يقولون، لا يحس بلسعة النار إلا الممسك بجمرتها.

تعددت زياراته، مرة كل شهر، كان يرتبها مع إجازات ابنه، أو يتكبد مشاق السفر وحده، كان يريد الونس بهم، سمع الكثير عن حكايات العائلة، الأهل، الناس، الأماكن، كل هذا لم يبعده عن إقناع داخله أن عليه أن يسال، وما مر، ولكن نار السؤال تشتعل داخله، كاد لسانه يطلق عنانه، ويطلب تفسيرا من عمه، السؤال ما إن يأخذ طريقة للخروج، إلا ويعود سريعا إلى حلقومه، سيظل دوما بحال انتظار، حتى يلقى تفسيرا، يقنع راسه.

بزيارته الأخيرة للعزبة، التي أعقبت عودة ولده من سفره إلى(لندن)، وجد نفسه مسرعا بلا سابق تمهيد، يأخذ طريقه للسفر، جلس أيام معهم ووسطهم، سمع الكثير من الحكايات، سمعها عشرات المرات، حفظ أحرفها، كلماتها، أحداثها، أهل القرى دوما يبحثون عن الحكايات وتكرارها، تدفئهم وتنعش دواخلهم، وبذات الوقت حنين لأيام خوالي مضت، كان سعيدا وهو يرى حركة العمل بالبيت، الذي أعلنوا أنه لهم، كان يصحبهم إلى الحقول، يشاهد طقوسهم اليومية بالعمل، يهمس داخله، ربما يوما ما أزاول هذا العمل.

ذات ظهيرة، وجد نفسه يخرج وحده، به رغبة عارمة للتجول، بالشوارع، بالحوارى، بالأزقة، بالبيوت، تخيل أباه سار بهذا الطريق، داس على ترابه وتعفر به، تخيله واقفا على عتبات البيوت مع أصدقاء من عمره، يحكون، يتشاكسون، يمزحون، وربما يتعاركون، تخيله واقفا على رأس أحد الشوارع، يغازل إحدى الفتيات، تخيله يجلس على حافة ترعة أو مصرف يلقى بسنارته، حالما بأن تخرج له بعض السمكات، تخيله صاعدا أعلى شجرات التوت، أو معتليا نخلات يهزها، يقذف بثمارها وصديق له يجمعها، حقيقة ذهب به التخيل لأبعد نقاط، وجد نفسه يأخذ أنفاسا

عديدة، كأنه يريد مخزونا كبيرا من الهواء، كان شاردا، يمر به البعض، مترجلا، أو معتليا دابته، يلقى السلام، كثيرا ما كان غير منتبه، خرج من شروده، على ربته خفيفة على ظهره، استدار، وجد شابا يقارب ولده عمرا، لم ينتظر أن يسأل، الشاب كان سريعا بطلبه.

- يا عم الحاج، جدي الحاج (عبد التواب عامر) يريدك، لم يسأله من يكون جده، وفيما يريده، بلا رد سار وراءه، لمسافة خطوات، البيت كان على مقربة، الشاب طرق الباب، ثم فتحه، مناديا.

-يا جدي، معي الحاج كما أمرت.

- تفضل يا بنى.

دخلا (دخل) حجرة متسعة، يجلس متربعا على إحدى كنباتها، شيخ طاعن بالعمر، متوسط البنية، صاحب لحيه شديدة البياض، مشذبه جيدا، رغم كهولته بوجهه ما يوحى بعافية جيده، أشار إليه بأن يقترب منه، مد يده مصافحا، جذبه برفق، قبل جبينه، مرادفات فعله.

- تفضل ولدى بالجلوس، أجل دهشتك لحين تقديم واجب الضيافة.

جلس صامتا، لم تهدأ حركات قدميه، تدق الأرض بشكل منتظم، الشيخ ينظر إليه، تعتلى وجهه ابتسامات عريضة، تلوح على وجهه، كأنها مصباحا يلقى ظلاله على محياه، عندما زادت دقاته، خاطبه.

-اهدأ يا ولدى، بعد واجبك، تعرف أنك ببيتك، ليس هذا مجرد كلام، هو كامل الحقيقة، اهدأ، سوف تجد ما يثلج صدرك، فقط. قليلا من الصبر، أراد الحديث للفهم، أوقفه الشيخ بإشارة من يده.

أتى الشاب حاملا صينية شاي، معها بعض الحلوى،

انتهى سريعا من شرب الشاي وتناول قطعة حلوى صغيرة، وجه الشكر للحاج، رفع عينيه إليه، راجيا أن يوضح له سبب دعوته، بالفعل بدأ الشيخ الحديث، طلب منه الجلوس قريبا منه، احتوى كتفيه، قبل كتفيه، تكلم

-دعني أولا أتشمم بك رائحة صديق العمر، وجهك كله وهيئتك، هي(محمد الهميلى)، لا تندهش، أنا وأبوك طوال سنوات تواجده حتى رحل، لم نفترق، كنا اثنان برداء واحد، هذا لأن أبى وجدك رحمهما الله، كانا أشبه بتوأمين، كانا أيضا عصاميين، بلغة الزمن، كل منهما بدأ حياته، بامتلاك

عدد لا يذكر من القراريط الزراعية، بقناعاتهم زادت، تركا ميراثا كبيرا من الحب والحكمة والثروة، المهم كنا لا نفترق إلا بساعات النوم، أحيانا ننام سويا، هنا أو هناك، تعلمنا بكتاب الشيخ(عبد الرحيم العدوى)، كنا مشاغبين، مشاكسين، كان ابوك أكثر جراءة وشقاوة منى، حتى أن البعض سماه(محمد فرع الشقاوة)، ولكنها كانت شقاوات فكاهية لا تؤذى أحدا، ابوككان آخر الأبناء، لذا كان كثير التدليل، المهم سارت بنا الأيام، لم يلق التعليم مرادا منا، عملنا بالحقول، كل ما نستطيع عمله بأعمارنا، نقاوة دودة القطن، تنقية الأرض من الحشائش، تعرفنا على مقاول أنفار، يذهب بنا إلى بلاد مجاورة، وغير مجاورة، عملنا معه بالحقول، بالمعمار، نحمل الطوب والرمل، لأن أباك كان صاحب أسلوب ولغة تجذب من يعمل معه، كان قريبا لحد كبير من المقاول، رغم فارق العمر الكبير بينهما، كان يكلفه ببعض الأمور التي تحتاج قدرة على التفكير، وللحق كان يؤديها كما يريد الرجل، استمر الحال سنوات، ربما حتى سن الثامنة عشر أو أكبر، إلى أن كان يوما، بهذا اليوم لم أشارك بالعمل معه، لا أتذكر السبب، كان العمل بإحدى القرى المجاورة، انتهى العمل، عاد ابوك آخذا طريق السير بين الزراعات، على

مقربة من مدخل عزبتنا، شاهد رجلا يركب دابته، فوق بعض أعواد الذرة الخضراء، المسافة بينهم حسبما وصف لي فيما بعد، بحدود المائتي متر، وبلا سابق إنذار خرج من بين الحقول، ثلاثة رجال، بأعقابهم سيدة، اندفعوا نحو الرجل، أسقطوه عن دابته، برك علية أحد الرجال على صدر الرجل، الرجل يصرخ ويتوسل، استقبلوا توسلاته، بطعنات متتالية، سكن جسد الرجل، أعطى أحدهم سكينا إلى المرأة، صارخا بها.

- إشفى غليلك حتى لو كان ميتا.

المرأة أخذت بطعنه وتوجيه السباب الفاحش للجثمان، (محمد) كان قد تسمر مكانه، فقد النطق، ولكن بلحظة صرخ، انتبهوا إليه، هرولوا ناحيته، هو عرفهم، أخذ يهرول وهم ورائه، لحقه أحدهم، أمسك بطوق جلبابه، نظر إليه، عندما عرفه، ذهل، (محمد) كان أخوه الأكبر صهرا لعائلة الرجل، فكر بقتله، ولحكمه الله، تراجع الرجل، رغم إلحاح البقية بقتله، رفض الرجل تماما، اكتفى بالصراخ في وجه أبيك، محذرا بعنف، عدم الحديث مع أحد أو في أي وقت بما رأى، وإن حدث وتكلم سوف يقتل دون رحمه،

تركوه ينتفض، يبكي بكاء مكتوما، تحامل على نفسه، لم يذهب إلى بيته، جاءني اللون الشاحب مرسوما على وجهه، يرتعش كأنه محموم، أدخلته سريعا، أتيت له بالماء، تجرعه عن آخره، جلست بجواره، أخذته بصدري، سؤال واحد يقفز من حنجرتي، هادئا حينا، وتصاعدت حينا آخر.

-ما بك؟.

بعد وقت طويل قضاه بالبكاء الحار، وارتعاشات عنيفة، حكى لي، لم أستطع الكلام، بكيت معه، طلب منى أن ينام معي هذه الليلة، وافقته، كان يحتاج الهدوء والأمان، أرسلت أحد إخوتي لأبيه يخبره بأنه معي، بعد ساعات أخذنا نفكر، كيف نخرج من هذا المأزق، أنا دخلت معه بهذا، الكل يعرف مدى ارتباطنا، ومؤكد سيتوقعون أنه سوف يحكى لي، بعد تفكير جاء الحل، فقط ننتظر لأيام، نتابع الأمر، ولكن بذات الوقت لابد من خروج جدك للعمل بمكان بعيد للغاية، العزبة ظلت رهن الشرطة والمخبرين لأيام، بداخلنا كنا واثقين أنهم سيصلون للقتلة، ولكن هذا لن يمنعنا من تنفيذ رحيله، لأنه سيظل تحت أعينهم مهددا من عائلاتهم، بعد أقل من أسبوع توصلت الشرطة القتلة، عرف وانتشر سبب القتل، القتيل اعتدى على المرأة، اغتصبها مرات، توسلت إليه مرات بأن

يكف عنها، رفض، لم يعد أمامها إلا أن تخبر إخوتها وزوجها، قرروا قتله، حكم عليهم بسنوات متعددة، ما بين العشر سنوات، والخمس عشر، سجنا، جدك كان يشعر أنه مراقب، وبذات الوقت يموت كل ليلة، لأنه كتم شهادته، ومن يكتم الشهادة آثم، والحق شاركته أنا نفس الآثم، المهم جاءت الفرصة له بترتيب من الله، المقاول جاءه عمل بالصعيد، عمل مجزى، وطلب من أبيك مصاحبته، شجعته أنا، لو ظل هنا، سيكون دائم القلق، أخبر أباه بما يريد، وافقه الأب على ان يذهب، أباه حتى مماته، لم يعرف ما أقوله لك، ذهب جدك، يحضر على فترات متفاوتة، تطول أو تقصر، يجلس معي، يريد على ما كان من أيامه، ولكنه بكل مره يردد لي، أنه مريض بضميره، ضميره الذى تركه للآثم، أحاول تهدئته، أنت لست آثم وحدك،

هذه قصة جدك، الذي حملني أمانتها، أن أخبر بها نسله، أنا لم اشاهدك إلا حين جئت مع(محمد) عند وفاة الجد، ولم أعرف عنكم شيئا، عرفت بحضوركم من شهور، ولكنى تريثت حتى تنتهي رحلة تقاربك مع العائلة، جدك أوصاني أن أوضح هذا الأمر، آخر مرة، جلس إلى، قائلا.

-أخبر ولدى أو أحفادي عن سبب غربتي، لا أريد لهم أن يظلوا أسرى تساؤلات لا تجد إجابات تعذبهم.

-ولدى، أنا أيضا أباك، أرحتني، من أمانة ظلت حبيسة لعقود بعيدة، فقط لي رجاء، أن تزورني كلما جئت، عدني بهذا، رغم السنوات، جدك يسكنني.

نهض (جلال) معانقا الشيخ، يقبله العديد من القبلات.

-أبى الحاج، أنت فعلا أبى، رأيت بك أبى بتفصيلاته، أزحت فعلا أرقا ظل يؤلمني طوال عمري، أنت طببت نفسي، أشكرك أبى، يكفي أنك أوضحت أن السبب خلاف على ميراث كما قال عمر، وربما تكون حدثت بعض المجادلات بهذا الشأن، مؤكد تكون أول من أطرق بابه دائما، أطال الله بعمرك، اسمح لي بالذهاب.

-تفضل بأمان الله ورعايته، بيتي هو بيتك، فقط ما سمعته لا يخرج من صدرك، المهم أنك عرفت وفهمت، صاحبتك السلامة.

خرج يشعر كأنه نفض عن كاهله عديدا من السنوات والأثقال.

.. خرج من بيت الحاج (عبد الوهاب)، شخصا آخر غير الذي دخله، يشعر بأنه لا يسير على الارض، كان كمن يسبح بالفضاء، أحس أن له جناحين، خطواته مغايرة، أخذ يسير على غير هدى، يتفحص كل شيء، يريد أن يصرخ بأعلى الصوت.

-أنا ابن (محمد محمد الهميلى)، عاش غريبا، مات غريبا، ولكنه عاد للحياة، وسيظل حيا، شعر أنه تلبس أردية جديدة، مليئة كل ألوان الهدوء والسكينة، سارع إلى الحقول حيت أبناء عمومته وأولادهم، صاح بهم، اليوم أنا مقيم لكم غذاء للجميع، نتناوله هنا بين الزروع، أخبروا الجميع حتى أعود، لم ينتظر جوابا، أولاهم ظهره، وهرول، الدهشة ملأت العيون، مع بعض الضحكات، أخذ طريقة لركوب سيارة تذهب به لطنطا، دخل إلى أحد محال المشويات الشهيرة، طلب عددا من كيلوات الكباب والكفتة، جلس على مقهى قريب، يرتشف الشاي، يتأمل المارة، الطريق ملئ ببشر متعددي الوجوه، وجوه يكسوها فرحا غير مكتمل، وهناك من تتراقص الفرحة على وجوههم، وهناك الكثير من الموجوعين بشتى ألوان الألم والوجع، لابد للحياة أن تكون مليئة بكل شيء وضده، طلب سيارة خاصة، كميات الطعام

كبيرة، طلب من السائق أن يكون معه بعض الوقت، يمنحه اكتر مما يريد، طلب التوقف أمام البيت، نزل مسرعا، أخذ يقفز الدرج قليل العدد، طلب من عمه أن يصاحبه لتناول الغذاء مع الكل بالحقل، حاول العم مرارا الرفض، ولكنه كان شديد الإلحاح، حتى أنه تناول العباءة، طرحها على كتفيه، سارت السيارة بالطريق إلى الحقل، طريق غير ممهد، كثير الصعود والهبوط، توقف، نادى على الشباب للحضور لمساعدته، اللفافات كثيرة، متعددة الأحجام، والمشروبات الغازية بلا عدد، صرف السائق بعد أن منحة ضعف مطلبه، نادى الكل للحضور إلى مدار الساقية، المحاط بعدد من أشجار التوت، وشجرتان من الجميز ضخمتان، على طرفين من الأطراف، جلسوا على شكل دائرة كبيرة، يتوسطها العم، أخذ يوزع اللفافات على الجميع، وجهه مشرق، عينيه تتراقصان، سأله العم.

- بك شيء غريب هذا اليوم، لكنى أحسه شيء مفرح، بشرنا.

-بالحقيقة يا عمى، كأني ولدت اليوم فقط، وجدت إجابة عن تساؤلات رافقتني على مدار عمري، الحمد لله، بوقت قريب أحكى لك، لنأكل، ألف هنا.

الطعام فتح شهية الكل، ولكنه أيضا فتح شهيته للحكي، حكى لهم بعض حكايات القرية التي عاش بها، حكى لهم عن (مرسال)، الرجل المرابي، الذى يقرض، لتعود إليه الأموال، مضاعفة بوقت قصير، لم يرحم أحدا، لا يمهل أي مقترض وقتا غير المحدد سلفا، يحجز على محاصيل، على بيوت، لا مانع عنده من طرد البعض من بيوتهم، دون أي رحمه، ولكن الله يمهل ولا يهمل، مات بلا مقدمات وهو يعتلى دابته، سقط ميتا، عندما ذهبوا بجثمانه للمقابر، حاولوا رفع النعش على أكتافهم، لم يستطيعوا تحريكه، مرارا ولا فائدة، وكان الحل الذى اقترحه البعض، أن يدفن مكانه، بالفعل حفر له قبر ودفن، لم يكن له أولاد، أبناء إخوته رفضوا أمواله، تبرعوا بها إلى مساجد القرية، قائلين أنها أموال حرام، أما الأرض فهي من حقهم، لأنها مورثة له من جدهم، حكى لهم عن(عيشه)، الضريرة، التي تقيم بحجرة هابطة بشكل كبير عن أرض الحارة، حجرة للنوم، وبيع بعض حلوى الأطفال، يجلبها لها رجل من أبناء القرية، يعمل بالبندر، الغريب أنها تعرف مكان كل شيء ومكانه، لم تخطئ مطلقا، الأغرب أنها كانت تنادى على أسماء بعينها، تعطيها من الحلوى بلا مقابل، الغريب أنهم فعلا كانوا لا يملكون ثمن أي نوع من

الحلوى، وكأنها تعرف الفقير من الغنى، ماتت وهى على حال جلستها، بعد ان بلغت عمرا لا يعرف أهل القرية مقداره القرية كلها شيعتها بالبكاء، فعلا البصيرة أهم من البصر، حكى الكثير والكثير، حتى أنهم لم ينتبهوا إلى انسحاب الشمس وخلودها للمغيب.

..14..

مُصَارَحَات

جلست ذات مساء مع والديها، أحست من بداية اليوم، أنها بحاجة ملحة ان (لأن) تخرج ما بداخلها، حانت لحظة الحديث، لكل شيء بالحياة لحظة ميلاده، تريد أن تدخلهم وتشركهم فيما تحلم وتفكر، استكانت بين والديها، ملتصقة بهم، تلتمس نبضهم الدافئ، تناولت يد كل منهما، أحاطت بهما بكفيها، صوبت عينيها إليهما، تستمد منهم ما يجعلها تتكلم، تحدثت.

-أبى، أمي، أود أن أحدثكم بما يعتمل بصدري، تتذكرون من أعوام تلك العرافة العجوز، هناك قول لم أخبركم به، قالت، هناك مستقرك، هناك حلمك، تمسكي بحلمك، لا تفلتيه من يدك، الأحلام لا تنتظر، تومض بغته، ومن يمسك بها، ينالها، لم تغادر هذه الكلمات رأسي وتفكيري مطلقا، ولكنى آمنت بها، لأنى شاهدتها على أرض الواقع، عندما زرنا المعرض، من اللحظة الأولى دخلني شعور طاغ، أنى أنتمى لهذا العالم، ولعلكم تعرفون أنى دوما بحالة غربة عن مجتمعي، أنا لست مثله، أنا بطبعي لست مغموسة مثل الكل في الحصول على كل الرفاهية، على العيش بما يسمونه حريه، الحرية هي كيف تحدد هدفك بلا إخلال بالآخرين، هنا الحرية لها مفاهيم

مغايرة، غريبة، أن تنال وتأخذ، وتغتصب حقوقا ليست لك بلا أي مراعاة لحقوق الغير، الكل يرى أنه الأوحد بالدنيا، أن تكون شهواتك ورغباتك فوق الجميع، أنا بطبعي لم أنزلق لهذا، لم أبحث عن صديق، وعن علاقة، كنت حريصة أن أكون يوما ما، لرجل واحد، بإطار قانوني مقدس، معلن للجميع، الرب حينما يعطينا صك الميلاد، نعرف أن هناك قدر، هذا أمر مسلم به، ولكن الله يضعنا أمام خيارات عديدة، تجمع بين الجيد والسيء، يترك حرية الاختيار لنا، منا من يكون مالكا لنعمه البصر والبصيرة، فيكون اختياره مثاليا، ومنا من يكون معصوب العيون، وغائبة عنه البصيرة، فينزلق، قد يفيق بعد حين، وقد لا يفيق، البشر دوما وأبدا بحالة امتحان، كل لحظات الإنسان اختبارات، من جعل عقله متوازنا مع قلبه، نجح، ومن تجاهل العقل، وكانت أطماعه ونزواته هي أقصى أهدافه، جنح، والرب خيرني، وأنا اخترت طريق العقل، عندما رأيت (فريد) للمرة الأولى، شعرت بشيء لا أدرى كنهته لحظتها، أحسست بنداء يناديني، يشدني، فسرته حينها أنها حالة ارتياح، ولكن بعد تجوالي وحديثي معه مرات، أيقنت أنه متوازن، فكرا، عقلا، راقي بالتعامل الإنساني، طريقة حديثه، تعبيرات وجهه،

حركات جسده، كلها تقول هذا، أنت يا أبى، قلت هذا مرارا، أن كل جزء من جسد الإنسان يعطى ملمحا عنه، يكمل جزءا من شخصيته، سواء كان هذا جيدا، أو سيئا، أعترف أنه استحوذ على، أثار اهتمامي، بداية تعارفي به، كنت بعمر صغير، يندرج تحت مسمى فترة المراهقة، الشبيهة بالرياح، التي تؤرجح صاحبها بين رغبات ونوازع شتى، ولكن وعلى مدار أعوام، ومن خلال ما يرسله لي من بطاقات بريديه، بها كلمات تبدو عادية، ولكنى كنت أحس بأحرفها ترسل رسائل أخرى، ربما تقولين أنى كنت أسيرة الحلم، أتوهم غير الحقيقة، ولكن بزيارته الأخيرة، وبمطلبه الذى كنت أنتظره وأتمناه، ولعلكم أيضا أيقنتم هذا، إنسان واضح، واثق الخطوات، يطرق الأبواب، لا يحب ولا يجيد القفز على غير المعتاد والمألوف، وقتها أيقنت أن حديث العرافة لم يكون حديث أجوف، أو كان مقابل قول للحصول على مال، هذا أنا، افرغت صدري والقيته بين صدوركم، وعقولكم.

لم يجدا أي رد، احتضانها، بل اعتصراها، إنهالا عليها تقبيلا، ودموع تخضب الوجوه، الأب تناول أطراف الحديث.

-ابنتنا الغالية، هذه أسعد لحظاتي، لأنك أثبت أنك راجحة العقل، ومادام عقلك كذلك تقى أن بوصلة قلبك وتنبضك،

توجهه إلى مرادها، بشكل أقرب كثيرا إلى الصواب، لا أخاف عليك من مغبة اختيارك، لأنى منحتك ثقتي، وتركت لك حرية التعامل مع كل ما يحيط، لم أتدخل، لابد أن ننطلق بعفوية، نتعامل مع الكثيرين، بلا رقيب، حتى نتبين الحقائق مجردة، وبكامل تفكيرنا، دون إملاءات او توجهات من الأخيرين، صحيح كنت أراقب، وكنت سوف أتدخل بالنصيحة، وليس بفرض آرائي وتفكير، أحيانا عند التدخل، ومحاولة فرض منهج لشخص على شخص آخر، يكون مردوده وتبعاته، كل السلبية، لا تحاول أن تجعل الآخر، هو أنت، أو يحمل بصمتك، وأنت جد جعلتني أفيض شعورا لا أصفه، تربيتنا لك أنا وأمك، سارت بالمسار الذى رسمناه لك، منذ أن حملت بك، احمد الله أننا قد أنجبنا، ما حلمنا به لك، ان تتميزي، أن تكون لك ذاتيتك، وبصمتك الخاصة، شكر للرب، أما عن (فريد)، أوافقك فيما قلتيه عنه، إنسان ما أستطيع قوله عنه، أنه دخل قلوبنا من اللحظة الأولى، ومن يجعل بك قبولا دون أن تنتظر، إنسان جدير بالقبول، والأيام مؤكد تزيد هذا يقينا، اختيارك مسئوليتك، وأعرف أنها قادرة على تحملها، باركك الله، كلها بعض الوقت، ونذهب

لزيارتهم، نرى على أرض الواقع، حياتهم، طقوسهم، تفكيرهم، تعاملهم مع كل شيء، بشر وجماد، بداخلي ارتياح.

ضمها أكثر إلى صدره، حتى أنها آنت قليلا، شاركتهما الأم هذه الأوقات السعيدة.

..أخذ طريقه إلى الشرفة، بعد ان طلب من زوجته(أليس)، ان تأتيه ببعض العصائر، وأن تلحق به هي (ولويزا) بعد دقائق قليلة، جلس على كرسيه الهزاز، أخذ يهزه أماما وخلفا بشكل منتظم، مؤكد إعتاد من قبل، أغمض عينيه، تمور داخله دهشه، ما هذا النضج الذى وجده بحديث ابنته، ما هذه الرؤية الجيدة للأمور، لقد سبقت أعوامها، قفزات فجائية، كيف فاته هذا، قطع شروده نقرات خفيفة على زجاج الشرفة، دخلت الأم تعقبها ابنتها، أشار إليهما بالجلوس، تناول كوب العصير، ارتشف دفعه واحده، ربما أراد أن ينهى تساؤله وتفكيره بهذا الكوب، أخذ يتنقل ببصره على وجهيهما، يريد أن يصل لإجابات بلا تساؤلات مباشره، طال تجواله على الوجوه، وهما أيضا شاركاه الصمت المتسائل والداهش، فرك يديه، عادة ملازمة له حال تفكيره، تكلم.

- (لويزا) أنا اليوم سعيد بشكل يفوق التخيل، لقد فاجأتني بحديث به ثقة، مرتب دون لعثمة، دون ترتيب مسبق، كيف

مر على هذا دون أن ألمحه، أشعرتني بأنك قد كبرت سنوات وسنوات، سؤالي الذي يأكل داخلي، كيف لك هذا، كيف لك الوصول لهذه التحليلات الحياتية، التي تفوق حنكة وحكمة أناس عاشوا أزمانا طويلة.

سكتت لبعض الوقت، علت شفتيها ابتسامة صغيرة، قالت.

-أبى، البروفسير الكبير، أنت أول من تعرف أن المعرفة لا ترتبط بعمر عشناه، المعرفة تعلم من كل محيطنا، لا يجب أن نغمض أعيننا عن أي لحظة تمر بنا، اللحظة مشهد، صورة، سمعيه وبصرية، يجب أن نتأملها جيدا، بكل لحظة رسالة، ودرس وهدف، أنا سوف أوضح لك كل شيء، السبب فيما تراه، سببان، الأول، هذه المجلدات المصرية، التي تعطيك رؤية شديدة الاتساع، لعالم منظم فوق أي تقدير، كل شيء، محدد، مخطط، كأنه مجموعة تروس، متناسقة، تدور بهدوء تام، كل يعرف دوره، الحياة عندهم، سلسة، بسيطة، لا توجد تعقيدات أو منغصات، لكل حياته، يعيشها على طريقته، ويترك الآخر يعيش أيضا بطريقته، دون أن يتدخل ويفسد عليه حريته وخصوصيته، حتى بالأديان، تتعدد الديانات والمذاهب، ولكن لكل ما يدين به، وما يؤمن به، الدين لله، والوطن للجميع، عرفوا هذا من قرون سحيقة، قبل أن يكون

قول دائم ومرادف لكل أحاديث أصحاب السلطة والسيادة، هذا لا يمنع أن هناك بعض ما يعكر الصفو من قله، موجودة على مدار الزمن، تريد أن تكون هي موضع السيادة، وموضع الاهتمام الأوحد، وأن توجه الأخريين حسب ما يريدون ، ولكن هذا كان يتم وأده بوقت قليل، السبب الآخر، كنت يومآ اتجول بحديقة الكلية، نوعا من التغيير، بإحدى الأركان الظليلة، كان هناك شاب، نحيل الجسد، حنطي البشرة، صاحب لحيه بسيطة، يجلس القرفصاء، أشبه بجلسة من يزاولون رياضة اليوجا، ممسكا بكتاب، مغمض العينين، يهتز يمينا ويسارا، بشكل تلقائي، كأنه بندول ساعه، يقرأ بصوت عال بعض الشيء، قراءة بها موسيقى، موسيقى ليست مألوفة لدى، ولكنها تدخل إلى النفس دون انتظار، كان صدره يعلو ويهبط، ما أدهشني، كيف يقرأ وهو مغمض العينين، أشعرني كأنه لا يعيش معنا على الأرض، بل هو سابح بالفضاء، أشعرني، أن هناك شمسا غير مرئيه، تداعب عيونه، تابعته وقتا طويلا، منغمسا تماما بقراءته، يكاد لا يشعر بمن حوله، وجدت نفسى أجلس على مقربة منه، أتأمله، للحق أغمضت عينيَّ، بحثا عن العالم الذى يعيشه، مؤكد هو عالم جميل، هذا مرسوم على قسماته بشكل جلى،

التي أراها، كلما مر الوقت، تزداد بهاء ونورانية، بعد وقت طال، ولكنى لم أشعر بهذا، انتهى، أغلق الكتاب، رفعه، جعله يلمس جبينه، ثم قربه من صدره مرات، احتضنه مرات، ثم قربه من شفتيه، وقبله مرات ومرات، متمتما بكلام لم أتبينه، أخذ طريقه للنهوض، وجدت قدميَّ تذهب بي إليه، اقتربت منه، رفع وجهه إلى، هادئا، باسما، سألني .

- ما الذي يمكنني أن أقدمه لك أختي.

احترت للحظات، ما ردى، تمالكت نفسي.

- أسفه إن تطفلت عليك، ماذا كنت تقرأ، لأني اراك مأخوذا بما تقرأ، تناسيت كل ما حولك.

اتسعت مساحات البسمات على شفتيه، انعكست إضاءات على ملامحه.

- اقرأ أختي القرآن الكريم، كتابنا المقدس، ممكن نجلس قليلا أحدثك عنه، جلست على مقربة منه، كنت شبيهه بطالبة تجلس أمام أحد أساتذتها، أخذ يمرر بصره على وجهي مرات، أشعرتني كأنها شعاع مضيئ، اخترقني، انتابتني رعشات خفيفة، طال صمته، أرى الكلمات تتوقف على باب شفتيه، كأنه ينتقى الكلمات المناسبة، تكلم.

- أختي، هذا كتاب الله، القرآن الكريم، منزل من رب السماوات، على رسوله الكريم، خاتم الرسل والمرسلين، محمد بن عبد الله، النبي الأمي الأمين، هو دليل حياتنا، رفيق خطواتنا، منهج لكل تفصيلات الحياة، بكل مناحيها. سوف أحضر لك نسخه مترجمة، بالغد بمشيئة الله تقرأينه، ربما تدركين مفاهيمه، وربما تجيب على تساؤلات أجدها بعينيك، انا متواجد هنا دوما، بذات التوقيت بهذا المكان الظليل، أسميه خلوتي، أخلوا إلى ربى وإلى نفسى، فقط قبل أن أغادرك أقول لك شيئا، الله نور موجود داخل كل البشر، بكل العالم، وبكل الأزمان، تختلف مساحات هذا النور حسب قدرة الإنسان على الفهم، على إدراك رسائل رب العزة، أتمنى أن يغمرك نور الله، ومساحاته الشاسعة، وأن لا يغادرك، وهذا ما أراه على صفحة وجهك بأمر ، نهض وأخبرني وهو يوليني ظهره، إسمي، محمد الفقير، من المغرب، لعلك سمعت بها من قبل، إلى لقاء، السلام عليكم ورحمه الله وبركاته، تركني رهن دهشةٍ أكبر وأوسع، باليوم التالي، أتأني يحمل الكتاب، مجلد بشكل فاخر، داخل حقيبة أنيقة، قدمه لي، قائلا بانتظار تساؤلاتك، فقط عليك بالتطهر، وعدم شرب أي من المشروبات الروحانية، وبعيدا عن أي أجواء

صاحبة، انصرف، أقول لكم أمرا قد يدهشكم، مجرد أن لمست المجلد، أحسست بأني أسبح بفضاء غير متناه، يومها، دخلت غرفتي، أغلقت بابي، شعرت أن هذا الكتاب، يحتاج طقوسا معينة، فتحته، أخذت أتصفحه، اقرأ بهدوء تام، وتروى، دون عجله، على غير عادتي، على مدار أيام عديدة، قرأت، وعاودت القراءة لمرات، كل ما به، تحديد لكل الأمور الحياتية، تحديد خطواتها، ميثاق محدد بكل التفضيلات، صغيرها قبل كبيرها، كل ما يخطر ببال أي إنسان، يجيب على التساؤلات، أو لنقل لا يترك فرصة لأى منها، يبسط الحياة، يقنن كل شيء، أبى، أقول لك بلا مبالغات، هذا القرآن، أكبر من أي علم، إن قرأته، ستجد أنت، حلولا عاجلة ومبسطة للدخول إلى النفس البشرية بطلاقه متناهية، هذا هو أنا، وهذا سبب ما تراه من تغيير، أمر أخير، رغم أنى تجولت مع (فريد) مرات، لم يتطرق معي للمسالة الدينية، ولم يحدثني عن دينه، أو يرغبني به، وهذا وما قلته لك، كان ترسيخ لأمر فهمته من القرآن. احترام الدين، لكل إنسان الحق، أن ينتمي ويختار دينه، وأن يعيشه، دون أي إكراه، أو التعدي على خصوصياته.

سكتت، وأطرقت برأسها إلى أسفل، كان رد الفعل، أن نهض الوالدين، أخذاها بينهم، قبلاها عديدا من القبلات، مرورا أيديهم على شعرها، وعلى وجنتيها، كانت إضاءات وجهها قد انتقلت اليهما، طلبت لحظات من الوقت وتعود، ذهبت إلى غرفتها، عادت تحمل القرآن، قدمته إلى أبيها.

-أبى، اقرأ هذا الكتاب، ستجد به الكثير، فقط حسب ما أفهمني المغربي، يجب أن تكون طاهرا، لا تقرب المشروبات الروحانية، وبمكان هادئ تماما، حتى تصلك رسائله ببساطه، هو كما عرفت مطهر للنفوس وللعقول الأفئدة، للمرة الأولى بحياته، يجد نفسه يسرع إلى الحمام، يغتسل، يطهر فمه، يتناول الكتاب باحترام تام، عاد تلميذا بحضره صاحب العلم العليم.

.. على مدار أكثر من عشرة أيام، عكف على القراءة، بتمعن ودقه، يمسك قلمه، يكتب بعض، ملاحظاته، رؤياه، كان يستمر لساعات، لا يغادر مكتبه، القرآن شده، أعاد القراءة لمرات، خرج ذات يوم، صائحا ينادى ابنته، أتت مهرولة، مندهشة من صيحاته، هو لم يعلو صوته يوما، أتت مهرولة، وقفت قبالته.

- أبى، ماذا هناك.

-ا تجزعي ابنتي، لأشيء أكثر من أنى أريد أن أشكرك، أنت وضعت هذا الكتاب المقدس، الذى أشعرني أنى عدت لذاتي، أيقظني على الكثير من الأمور والمفاهيم والرؤى، التي تهنا عنها، هذا كتاب منهج حياتي، يحل ويفسر الكثير من المعضلات الحياتية، بمنتهى البساطة، أقول لك الحق، هو أعلى قيمة من كل الكتب التي كتبت، أشعرني كأنى مازلت أحبو بعالم الدراسة، صحيح مهما تعلمنا، ومهما درسنا، ووجدنا أنفسنا على قمة الهرم العلمي، مازلنا على العتبات الأولى، منهج لو سار على مضماره البشر، ان نجد صراعات، أو مصالح، أو أهداف غير شرعية، أقر أنى كنت أحس من أحرف انه نورا، يخترق النفس بشكل هادئ، أشكرك، ولكن سوف أعاود القراءة مرات ومرات، مؤكد أن كل ما به، لم يعرف أو يفهم بعد، مال عليها وقبلها قبلة حانية.

..15..

..نقاشات..

..جمع أولاده، وأزواج بناته، جلس متربعا على إحدى الكنبات، هم حوله يعلوهم الصمت، ينتظرون معرفة سبب هذه الدعوة، لم يطل بصمته، تحدث.

-أخبرتكم من قبل عن أهلنا بالعزبة، وعن أنهم رغم عدم علمهم بمكاننا، أو حتى كانوا واثقين من أننا أحياء، لسنوات طوال مرت، دون أن يعرفوا عنا شئ، البيت هناك إكتمل، وتم فرشه، والأرض موجودة، وأرى أنه قد آن الأوان لنعود، ونعيش وسط أهالينا، ولن نتخلى عن بيوتنا هنا، نأتى إليها كل فترة، مؤكد لن نطيلها، هذا أمر أول، محتاج رأيكم، يمكن لكم ان تتناقشوا فيما بينكم، فقط لا تطيلوا بالوقت، عشت عمرى أحفر سردايب الحفريات، بحثا عن التاريخ وتأكيده، آن وقت أن أعود لحفر سردايب حكايات عائلتى، أريدهم أن يلقوا بحكاياتهم إلى، وأرمى بحكاياتى إليهم، تنصهر الحكايات، فتنتج تاريخا، علمتنى الحفريات أن نظل بحالة بحث دائم لا تنتهى، حتى نصل إلى الحقائق.

رفع (كامل) زوج ابنته الكبرى يده، أشار له بالكلام.

- يا عم، أنت كبيرنا، وأول من يعلم مصلحتنا، ونحن طوع إشارتك، ولكنك أيضا علمتنا، أن عملنا هو حياتنا، وهو حبنا، وخاصة لمن يعمل بمثل عملنا، عالم الآثار، عالم لا يمكن الخروج من دائرته بسهولة، ربما تتقاعد بعد سنوات من العمل، ولكنه لا يغادرك، وأنت أعلم منا بهذا، نحن معه، أشبه بالسمك لو غادر الماء مات، وأنت أكبر دليل، تقاعدت رغم أنك لم تصل لسن تقاعدك، ورغم هذا مازلت مغموسا به، يأتى إليك، من يعملون بالحفريات، مصريين وأجانب، يفردون أمامك خرائطهم، تتفحصها مليا، ثم تمسك الأقلام الملونة، تحيط بعض الأماكن بداوئر، يغادرونك لشهور، ثم يعودون مرات ومرات، يعاودون التساؤلات، وأنت بهذه اللحظات وأنا رأيتها بعينى، تعود شبابا، إذا أنت شغوف بعملك، لا أقول هذا رفضا لمطلبك، ولكنه إيضاح، والقول الأول والأخير لك، وعلينا تلبيه رغبتك بلا نقاش.

- أحسنت يا ابنى، كلامك صحيح، وأكرر لن ننسلخ عن حياتنا هنا، نحاول أن نجد توازنا، وحلا لهذا، أقول يمكنكم مواصلة عملكم، وتأتون الينا على فترات، عامة لكم الخيار، الأهم لدى راحتكم وقناعتكم، صمت قليلا، عاود الحديث.

- أمر آخر أراه حتمى التحقيق، أن نقيم على جزء من الأرض، دارا لتحفيظ القرآن الكريم، على أن تخصص لصغار السن، ونتكفل بكل متطلباتها، صدقه جارية على روح والدى وجدى، أظنكم موافقين، علاوة على إقامة مسابقة سنوية لحفظة القرآن، تحمل إسم عائلة (الهميلى) أتت الموافقة الفورية، بهزات الروؤس، علت علامات الإرتياح والتصالح النفسى أسارير وجهه، إلتفت إلى ولده موجها له الحديث.

- وماذا عنك، هل من جديد عن عروسك القادمة وأهلها.

- نعم يا أبى، انا على تواصل دائم معهم، سواء بريديا، أو هاتفيا، هم سوف يصلون على أواخر أغسطس، يعنى بخلال عشرين يوما.

- وهل رتبت أمورك جيدا.

- بخلال أيام أجلس مع بعض أبناء عمومتى، وبعض زوجاتهن، نضع تصور لرحلتهم، سوف نجعلهم يرون كل شئ، قديما وحديثا، ولدى فكرة أن يكون هناك يوما أو يومان للعزبة، يجب أن يعرفوا أهلنا، ويعرفهم الأهل، ثم ما يهمنى هو تبريكات الجد(حسن).

- نعم التفكير، وفقك الله، أعلمنى بخطواتك، ربما تحتاج لبعض المشورة.

- مؤكد أبى، أنت الأساس فى خطواتى.

نهض الأب طالبا أن يذهب للنوم، وعليهم مناقشة ما تم عرضه.

بالصباح أخبره (فريد) بموافقة الجميع على أرائه.

..بصبيحة اليوم التالى، سارع بإرتداء ملابسه، أخذ الطريق للسفر الى العزبه، قرر الجلوس مع عمه، وأبناء عمومته، يعرض عليهم مشروع دار تحفيظ القرآن الكريم، والمسابقة القرآنية، كان قد أخذ قرارا لن يعلنه، إلا بوقت حدده هو، ساعات طويلة من سفر، ومن تنقل من سيارة إلى سيارة، وصل قرب المغيب، دخل إلى بيته، إغتسل، وأسرع بالذهاب إلى عمه، الذى رحب به كعادته، حدثه عن فكرته، رحب العم بها وأثنى على تفكيره.

- أنت جئت بتوقيت جيد، مساء الإجتماع الشهرى للعائلة، الذى نناقش به كل شئون العائلة، نعرض الفكرة، هم لابد أن يكونوا شركاء، الأمر لا يخصك وحدك، الكل سيساهم بهذا العمل الجميل، أخذا يتجاذبان أطراف الحديث، كل منهما ألقى

للآخر بما يفكر، تبادلا الآراء حول الكثير من أمورهم الخاصة والعامة، عند المساء، وبعد النقاش تم إتفاق على مساهمة العائلة بتكاليف الإنشاء، مع توفير كافة المتطلبات بشكل دائم، على أن يبدأ البناء فور إنهاء إجراءات التراخيص اللازمة، قراؤا فاتحة الكتاب تأكيدا وتبركا، عند إنتهاء الجلسة، صنعوا دائرة حول العم، أخذوا يرتلون القرآن، بشكل جماعى، نورانية الحدث، أحييت الكثير من خلاياهم ومسامهم، التى نال منها الإرهاق، نهض الجميع، دخل حجرة نومه، ألقى بنفسه على فراشه، ذهب بسبات عميق، لم يشعر إلا حين داعبت الشمس النافذة من خصاص النافذة وجهه، قفز يرغب بالوضوء والصلاة، والتجول قليلا بشوارع العزبة، يود أن يحتضن الجميع.

..تتالت جلساته، مع بعض من أبناء عمومته، أحس بالتقارب بينهم، مع بعض من زوجاتهن، لوضع تصور لجولة ضيوفهم، إتفقوا على زيارات، لكل ما يمكن. مناطق شعبية، ريفية، تاريخية، معاصرة، هو لم يفصح عن بعض تصوراته الخاصة، آثر أن تكون بمثابة مفاجأة.

..أتاه هاتف من (د.زاهر) يطلب منه أن يحضر للقائه بفندق(هيلتون رمسيس)مساء، منذ زمن لم يلتقيه، وكان

أيضا بحاجة للجلوس إليه، استرخى بحجرته للنوم قليلا، لم ينم كما أراد، فكره شارد بالقادم، يفكر بالكثير من السيناريوهات. بالنهاية تنهد بعمق، هامسا،

- لتكن مشيئة الله.

..15..

لا شَيءَ يأتِي مُصَادَفَةً

..في الموعد المحدد، كان متواجدا ببهو الفندق، يعرف أن الدكتور يحب الدقة بكل شيء، هو أخذ منه هذه الفضيلة، أخذ يتجول بعينيه، باحثا عن مكان تواجده، لمحه بأحد الأركان التي تمنحه رؤية للشارع بشكل بانورامي، كان جالسا معه آخران، ملامحهم تنبئ عن هويات أجنبية لهم، اقترب منهم، رفع الدكتور بصره، أشار إليه بالجلوس، قام بتعريف كل منهم للآخر، كان يناقشون بعض النظريات الحديثة وطرق الكشف عن الآثار، وعن بعض اكتشافات ببعض البلدان، وعن تأثير هذه الاكتشافات على علم الآثار، والعصور التاريخية، وكتابة التاريخ بشكل حقيقي، شارك هو بإبداء الرأي ببعض الجزئيات، بعد وقت أفرد الدكتور، خريطة لبعض المناطق التي يحتمل أن تكتشف بها آثارا كثيرة، يمسك القلم، يرسم دوائر حولها، طلب من الدكتور، أن يمنحه فرصة تحديد بعض الأماكن، أمسك بالقلم، أحاط أماكن لم يشر إليها أحد، لحظة أن كان يرسم هذه الدوائر، كان أبوه هو مصدر إلهامه، معروف عن أبيه أنه صاحب بصيرة كبيرة بهذا الشأن، نظر اليه الحضور، نظرة عميقة بها بعض الدهشة، أوقف مسيرتها، قول الدكتور، لتكن مشيئة الله، ولنرى مدى توفيقك، تطرق النقاش بينهم أيضا، إلى لصوص

الآثار، وعن المزادات التي تعلن عن بيع آثار، خرجت بعدم مشروعية من بلادها الأصلية، وأن حجم هذه المسروقات حسب تقارير المؤسسات التراثية يزداد كل فترة، وعن دراسات جادة لوضع حلول وقيود للحد من هذه الظواهر، التي تؤدى إلى اندثار معالم وحقب تاريخية مهمه، وضرب مثلا للسرقات، أن مصر في خلال سنوات قليلة استردت قرابة الخمسة آلاف قطعة أثرية من أمريكا وحدها، إذا قسنا على هذا، لك ان تتساءل عن كم عدد القطع الأثرية التي هربت وسرقت، أتخيل أنه رقم يفوق التخيل، طال النقاش لوقت طويل، بعدها نهضا الأجنبيان، انصرفا، خاطبه على الفور.

- ما اخبارك؟ حدثني عن كل مضى دون لقاء بيننا، من زواياك الخاصة، أما الجانب العملي، أنا أعرفه وأتابعه، تبسم ابتسامة من يعرف طباع أستاذة، رغم خضم أعماله، وسفرياته المكوكية، إلا أنه يتابع كل التفاصيل، كبيرها وصغيرها، هو يرى أن التقارب من كل الجوانب، حتى وإن كانت خاصة، إلا أنها تؤدى إلى ارتياح تمام، وتوفير مناخ أسرى حميمي، يزيل الفوارق، يقرب المسافات، حكى له كل ما مضى، حتى حكايات الأب، كانت عيون الدكتور تستمع

وتشاهد بمنتهى الإصغاء، بين اللحظة واللحظة، يمد يده إلى يد (فريد)يربت عليها، بها رسائل تنبئه، أنه يشعر به، ويحس بفرحته، حينما انتهى من كل الحكي، حدثه الدكتور.

-بداية جد انا سعيد بكل ما سمعت، سعيد لأني أراك سعيد، تتراقص الفرحة بداخلك، دعني أقول لك أمرا، من اليوم الأول، حينما رأينا هذه الفتاة بالمعرض، جاءني شعور، أن هناك أمورا قادمة، من خبرتي الحياتية الكبيرة، تعلمت أن أي امر بالحياة، لا يأتي مصادفة، كل الأمور أقدار، لها زمانها ومكانها، رأيت بعيني وهج على وجوهكم بذات اللحظة، وسوف تكونون لبعضكما، هل اتفقتم على شيء، أما مازالت الأمور مؤجلة.

- أستاذي، تكلمت وعرضت اقتراني بها، ولكنى بذات الوقت طلبت منهم أن يحضروا للزيارة، ورؤيتنا على أرض الواقع، معرفة حياتنا بلا رتوش، طباعنا.

- أحسنت، لابد من هذا الجانب، حتى يكون القرار صادر عن قناعات تامة، دعنا نستبق الأحداث، من معرفتي لك جيدا، أعرف أنك مؤكد وضع تصورا لكل شيء، نفترض حظيت بالموافقة، انا واثق منها تماما، ماذا برأسك من ترتيبات.

- ترتيبات عادية، أفكر أولا بتعريفها بعائلتي بالعزبة عن قرب، أجعلها تعيش أجواء الريف بعفويته، سوف أتجول معهم بالأحياء الشعبية، ربما أجلس بهم على عربات الفول، أو أدخل بهم محلات الكشري والأحياء التراثية، وأيضا أذهب بهم إلى منشآت حديثة، معبرة على عصرنا الذي نعيشه ونواكب به تطورات الحياة، حفلات بالأوبرا، ربما أذهب بهم للحسين، لقهوة الفيشاوي، أفكار كثيرة تدور برأسي، فقط لم تتبلور بعد.

- تعرف أنى اعتبرك ا(ابنا لي، أنا لم أنجب، رغم زواجي مرتين، أجنبية ومصرية، بالفعل أعتبرك ابنى، وقد شرد فكرى مرارا بك، حتى تخيلت نفسي أضع تصور ليوم عرسك، تخيلته عرس فرعوني، الملابس فرعونية، الموسيقى والغناء، الرقص، كله فرعوني، أو أقل لك لنجعله كوكتيل فرح، يجمع بين الماضي واليوم، نضفره برقصات وغناء ريفي، وفرعوني، ونوبي، سوف تكون هديتي لك، هناك موسيقى (أوزوريس) (لجمال عبد الرحيم)، لنجعلها افتتاحية اليوم، المصريون القدماء كانوا مهووسين بالموسيقى والغناء، لقد سبقوا عصورهم بالكثير من الخطوات، صنعوا الآلات الموسيقية: الهارب أو القيثارة المصرية، النايات

وآلات النفخ، آلات الجرس، المزهر أو الجلجل كما كانوا يسمونه، الإيقاع، هم أول من فعلوا هذا، هل تعلم أن الملك الفرعوني(أمنفيس)أقام بحيرة أسماها بحيرة(المسرات) تنبعث منها الألحان والغناء، حتى أنه دعى مرة ثلاثمائة وسبعة عشر سيدة آسيوية، كان لديهم رقصة تسمى(رقصة النجوم) التي وصفها(أفلاطون) انها ابتهالات قدسية للتعبير عن خالدة قدسية بحته، وكان يتم عرضها في المعبد وأمام الكهنة فقط، وليس أمام المشاهدين، هي أداء بعض الراقصات بأشكال وحركات ترمز إلى بروج السماء الثانية عشر، يبدو أننا حتى بعيدا عن العمل نعيش العمل، أقول لك أمرا ربما قاله لك أبوك، عندما أحمل قطعة أو مومياء مستخرجة، أحس أنى أحمل أجداده، أشعر بعناقهم، قبل أن أنسى، عدني أكون شاهدا على قرانك، هذه واحدة، والثانية، يكون لي يوم اصحبكم وأعد لكم بروجراما يليق بكم.

-هذا شرف لا يضاهيه شرف أستاذي، انت صاحب الأمر.

- أخبرني بتفصيلك أولا بأول. ومرة أخرى أقول لك، لا شيء يأتي مصادفة.

- حاضر.

عانقه عناق الابن لأبيه وغادر، فرحته تسابق خطواته.

..16..

شيءٌ مِنْ بَعِيدٍ نادانِي

..جاءه تلغراف على عمله، يفيد وصولهم، بالخامس والعشرين من أغسطس، من العام السادس والتسعين بعد الألف وتسعمائة، محدد به رقم الرحلة. وساعة المغادرة، وساعة الوصول، أخبر أباه وأمه، مصرا على وجودهم معه، أعد مكان الإقامة، استأجر شقه تطل على الأهرام، من عديد الزوايا، قبل الموعد المحدد بساعتين، كان متواجدا، جاء معه صديق بسيارته لمصاحبة الأب والأم، بعد وصول الأسرة الإنجليزية، عند دقات الساعة الواحدة ظهرا، أعلن عن هبوط الطائرة القادمة من لندن، وقف أمام الحاجز المعدني، يشخص ببصره، يجول بعينيه، يبحث عن وجوههم، أخيرا لاحوا له، رفع يده مشيرا لهم، تبادلا البسمات، أشرقت الوجوه، خرجوا، استقبل الدكتور بين أحضانه معانقا، قبل يدى الأم والابنة، قدمهم للأب والأم وللصديق، خرجوا، توزعوا على السيارتان، الأم والأب مع الزميل، سارت السيارة بهدوء، ألصقت وجهها بزجاج السيارة، تتأمل كل شيء، شوارع، بنايات، بشر، الصمت ساد الوقت، يقطعه هو مرحبا بين اللحظة والأخرى، وصلا إلى حيث الشقة، كان الأب والأم بالانتظار، صحبهم بجوله لتفقد الشقة، وقفوا انبهارا برؤية الأهرامات من الشرفة التي تلف محيط الشقة،

فتجعل الرؤية متسعه من كل الزوايا، عادوا للجلوس بالصالون، أتى لهم لمشروبات، تبادلوا الحديث عن الفترة الفائتة، فاجأه الدكتور، عندما تناول الحديث عن القرآن الكريم، قال.

- لقد قرأته مرات كثيرة، جعلني مدمنا على قراءته، لأنه ينبئك عن ماهية الحياة، عن كل شيء، يجيبك عن تساؤلاتك حتى الباطن منها بسهولة، يضع حلولا وعلاجات لكل أمر سهل وصعب، حين تقرأ تشعر أنك سابح بعالم آخر، ينسبك كل شيء، تشعر بنورانية شاملة تضيء محيطك وروحك، جد هذا كتاب يستحق التقديس.

- دكتور، قرآننا شفاء للروح، ينقى النفس من همومها، يبعد عنك أي أرق، يجعلك تتعامل مع الحياة، بكل ارتياح، فقط ما على القارئ سوى أن يكون صادقا، شاعرا بمضمون ورسائل القرآن الكريم.

حدثهم عن أبيه كثيرا، عن عمله، عن طقوسه، عن الأم ودورها مثلها مثل الكثيرات من الأمهات، رسالتها الأهم، تربية الأبناء بشكل يضمن لهم التعامل مع الحياة بحنكة وذكاء، الحديث تشعب بهم كثيرا، أتت إليهم الأم، تدعوهم لتناول الغذاء، الذي صممت أن تصنعه بيديها، أرز، بامية،

لحوم مشوية، سلطات، أقبلوا على الطعام بشهية، أثنوا كثيرا عليه، تناولوا المشروبات، نهض (فريد) يطلب السماح بالمغادرة، يتركهم لأخذ قسطا من الراحة، سوف يأتيهم بعد ساعات، (دكتور زاهر) أعد لهم أمسية جميلة تحت سفح الأهرامات، ودعوهم وخرجوا.

..طوال طريق العودة، الأم لم تتوقف عن الحديث، قالت أنها لم تفهم لغتهم وحديثهم، إلا أنها تشعر كأنها تعرفهم من قبل، الارتياح لا يأتي بالطلب، لكنه يتولد داخلنا لحظة الشعور به، ضحكت ولكزت ولدها من ظهره مرات، قالت أنها لمحت بعيون (لويزا) وهجا يقول الكثير، صاحت فجأة، مرتاحة يا ولدى مرتاحة بجد، ربنا يسعدك، بادلوها الضحكات، ما إن وصلا لمكان سكنه، حتى تناول رأس الأم والأب، قبلهم (قبلهما)، ضاما كليهما إلى صدره، خلدوا للنوم، نام هادئا قرير الأعين، عند قرابة السابعة التي أعلنتها ساعة الحائط والتي اقتناها من لندن بزيارته الأخيرة، بنفس دقات ساعتهم العتيقة، دقات(بج بن الشهيرة)، دعا الأب والأم بالاستعداد للذهاب لتلبيه دعوة (دكتور زاهر)، تأنق الجميع وكأنهم ذاهبين لحفلة عرس، طرق باب الشقة بيده طرقات هادئة، فتح له الدكتور مرحبا، أجلسهم بالصالون، تركهم للحظات

حتى يستعدوا للذهاب معهم، دقائق وكان الجميع على أهبة الاستعداد للخروج، المسافة بين إقامتهم وسفح الأهرام لا تتجاوز الربع ساعة، كان الدكتور بالانتظار، رحب بهم كثيرا، اختار لهم مكانا يتيح لهم التمتع بكل محيط المنطقة، الأضواء تتوهج بشده، ثم تعود للخفوت، بشكل يضفى شاعرية على المكان، الصوت والضوء والحديث بلغات عده عن التاريخ المصري، جلوسهم كان تمام الصمت، إنصات مصحوب بدهشة، الأهرامات تحت الأضواء شيء مبهر، أكثر من ثلاث ساعات، وهم على هذه الجلسة، أخيرا غمرت الأضواء المكان، إيذانا بانتهاء الحفل، نهضوا، صافحوا الدكتور بحرارة، مصافحة تعبر عن امتنان، عاد بهم إلى إقامتهم، طالبهم بالخلود للنوم، الغد به الكثير، وليكونوا على أهبة الاستعداد باكرا.

في ساعات الصباح الباكر، أدى صلاة الفجر، اتصل بالدكتور وأخبره أنه بالطريق إليهم، يريد أن يصحبهم بجولة بالأحياء الشعبية، أجابه أنهم بانتظاره، أخذ يقفز درج السلم، يدندن ، الحب جميل..حلو يا محلاه، توقف أمام باب المبنى، هاتفه ثانية، مخبرا له أنه منتظر، نزل، سار بهم إلى إحدى عربات الفول، بشارع متفرع من شارع القصر العيني، إعتاد

ان يتناول فطوره حينما تتاح له الفرصة، جلسوا إلى إحدى الموائد المتناثرة على الرصيف، طلب لهم الإفطار، بعد ان همس للبائع بكلمات يوصيه بعمل أطباق تليق بضيوفه الأجانب، جلسوا تعتريهم الدهشة، حشد كبير من البشر، من كل الشرائح، غنى وفقير، صاحب أناقه، وصاحب ثياب بها كثير من الرتوق، الجميع منصهر، متقارب مع الآخر، يتبادلون الأحاديث بحميمية وكأنهم على علاقة سابقة، تتشابك الضحكات، وإن لاحت دموع من أحدهم تجد الكثيرين يسرعون بمسح وجعه ودمعاته، الكل يأكل بشهية، جو نقى لا طبقية، ولا فواصل، آتاهم الطعام، تأملوه قليلا، لا يعرفونه من قبل، حدثهم عنه، على إنه الوجبة الصباحية للغالبية، وربما تكون وجبه دائمة للبعض على مدار أيامهم، أكلوا بشهية تامة، وكأنهم على معرفة سابقة بهذا الطعام، حينما انتهوا، أخذهم سيرا على الأقدام، مارا بشوارع جانبية، وجدوا أنفسهم أمام النيل، جلسوا على السور المطل عليه، يتأملون المراكب المنتشرة، والبواخر النيلية، والعوامات على جانبيه، نسمات الهواء المنعش تداعب وجوههم، ترحب بهم، همس لهم ان النيل ليلا يرتدى أبهى حاله، عندما تنتشر على صفحته، أضواء البنايات والشركات والفنادق المطلة

على صفحته، تصنع على مائة لوحه لا يبدعها أي فنان، فقط صاحب إبداعها الأوحد هو الله، الوقت يمر وهم لا يشعرون، اشعة الشمس لفحت وجوههم، نبهتهم ان كثيرا من الوقت مر بهم ولم يشعروا، بسبب تأملاتهم، عادوا للسيارة، أخذهم إلى حي الحسين، جلسوا على مقهى (الفيشاوي) بطقوسه، وبتنوع زائريه، ارتشفوا أكواب الشاي الأخضر، والشاي بالنعناع، وأكواب القهوة العربية، وروائح البخور تملأ المكان، لاحظوا تواجد جنسيات عربية وأجنبية كثيرة، أخذهم للتجول بمضمار المسجد الحسيني، والأزهر الشريف، مروا على محلات باعة الكتب، التراثية والمعاصرة، مر بهم على خان الخليلي، شاهدوا النقش على النحاس، وعلى الزجاج والقلائد، والكتابة على ورق البردى، ذهب بهم إلى صديق، طلب منه لوحة بردية كبيرة تحمل صورهم جميعا، أحضر الرجل عدسة مصورة، أخذ لهم صورة، وعده أنه بأيام قليلة سيجد اللوحة جاهزة، اقتنى لهم أقراطا وعقودا تحمل أشكال فرعونية، وأحضر للأب قارورة نحاسية منقوشة نقوشات فرعونية بشكل رائع، تصلح للعطور، السعادة كانت تقفز من عيونهم، طلبوا منه الاكتفاء برحلة هذا اليوم، والفهم، أوصلهم حتى سكنهم، معلنا أنه سيمر عليهم بعد المغيب، ليروا النيل

وجماله ليلا، وربما إن سنحت الفرصة، يركبون باخرة نيلية تمخر عبابه، يستمتعون بوقت جميل، أتاه الرد بزيادة بريق العيون استجابة.

..طالت أيام رحلتهم، جابوا الكثير من شوارع وحوارى القاهرة، حدثهم عن الكثير من طقوس المصريين، كانوا أيضا كثيرو التساؤلات، التساؤلات دوما مفتاح المعرفة، أخذهم بزيارة إلى العزبة، عرفهم بالجد، وأبناء العمومة، جعلهم يرون أعمال الزراعة والري، وأعمال الخبيز، تناولوا الطعام وسط الحقول، جعل زوجات أبناء عمومته يصاحبهن إلى الأفراح، الدكتور أحب الجلوس مع الجد، وسماع حكايات متعددة، يقوم (فريد) بالترجمة، صاحبت الأم وابنتها بعض زوجات أبناء عمومته بالقاهرة، لزيارة العديد من الأضرحة، أدهشهم لحظات الأذان، وهرولة الكثيرين نحو المساجد، على اختلاف شرائحهم المجتمعية. كانتا تعودان محملات بالعديد من الحكايات، الأيام الجميلة تذهب سريعا، باليوم الأخير قبل المغادرة، جلسوا جميعا، تحدثوا طويلا عن

سعادتهم، بكل لحظات رحلتهم، فاجئه الدكتور قبل انتهاء الجلسة، قائلا.

عرضت علينا سابقا طلب الاقتران بابنتنا، وطلبت أنت إرجاء الأمر لحين معرفتنا بكم، وبعد رؤيتنا لكم على طبيعتكم وعفويتكم. نرحب بهذا، إلا أن كنت انت تراجعت،

وأعقب كلمته هذه بضحكات صاخبة، أكمل.

- أنا أداعبك، وكما عرفت أن الزواج له طقوس عندكم، لذا أرجو أن يأتي والدكم لطلبها، ثم لنرى هل نوافق أم لا، وعاود ضحكاته الصاخبة، شاركه بها كل الحضور، أشار الأب إليهم أن يستمعوا له.

- بداية ما أقوله الآن ليس به أي مبالغة، بالأيام القليلة التي تعارفنا بها بأسرتكم، وأنا غاية بالراحة، دخلتم قلوبنا من اللحظة الأولى، لذلك يشرفني ويشرف عائلتي أن نطلب مصاهرتكم، وثق أنها ستكون ابنه لنا قبل أي شيء آخر.

- ونحن أيضا نتوج بكم وبعائلتكم شرفا، فقط لنا أو بالحقيقة هو مطلب (لويزا) أن يتم حفل زفافها بين أحضان الآثار المصرية بصعيد مصر، وأظن هذا ليس صعبا.

- هذا ما كنا نفكر ونعد له، لنا نفس المطلب.

توافقا على أن يعودا بدايات العام، بعد إنهاء بعض الأعمال الخاصة بهم، طلب(فريد) أن يخرجا وحدهم للتنزه قليلا، تمت الموافقة، أسرع بها إلى النيل، طلبا مركبا، أحاط كتفيها بذراعيه، همس لها.

-جئت بك هنا أشهد النيل على حبي لك، هذا يوم مولدي، تناول يدها، قبلها، طال بينهم الحديث الدافئ المحمل بكل أمنياتهم للغد.

لحظة المغادرة رغم ألمها الا أنها كانت مصاحبة لشوق وانتظار.

..الأيام تسرع، رغم إحساسه أنها مبطئة جدا جدا، انشغل تماما بتجهيزات كل شيء، سكنه، وإعادة تأثيثه، وتجهيزات حفل الزفاف الذى يريده مميزا، مغايرا لأى حفل زفاف، جلس مع الدكتور(زاهر) تبادلا المقترحات، الدكتور طلب منه أن يتكفل بالجانب الفني، هو عديد الصداقات والعلاقات مع أهل الفن، جاملهم كثيرا بالعديد من المناسبات العامة، والخاصة لهم، مؤكد سيرحبون بتنفيذ رغبته ودعوته للمشاركة، وضع تصور امامه، أخبره أن يتواجد عدد من الصغار، من الجنسين، يرتدون زيا فرعونيا، سيطلب من صديقه المسئول عن الأوبرا هذا، يستقبلونه بالورود التي

تنثر عليهم، والبعض يحمل شموعا ملونة. مع صدوح القطعة الموسيقية الرائعة المأخوذة عن الفراعنة، معزوفة (جمال عبد الرحيم) التي تحمل اسم (أوزوريس)، مع وجود رقصات شعبيه، ونوبية، ورقصات تنورة، وأخبره أنه سوف يحصل على تصريح بإقامة الحفل، بمكان قريب من مدخل معبد(الكرنك)، حتى يكون خلفية رائعة للحفل.

كان على تواصل مع أبناء عمومته، ومع الجد، يحكى لهم كل التفصيلات اولا بأول، كانوا يوجهونه لأمور فاتت عليه، كان على تواصل دائم معها، يحكى لها كل شيء، كانت تبادله سعادته وشوقه، كانت تناقشه بكل شيء، تبدى بعضا من رؤاها، أخبرته أنها تعد له مفاجآت، لن تخبره عنها إلا قبل يوم الزفاف بأيام قليلة، ألح عليها لمعرفة بعض الرتوش، رفضت تماما، أعد قائمة بأسماء من توجه لهم، راجعها مرات ومرات، خشيه ان ينسى أحدا، كان يتناقش مع أبيه،..في الكثير من الأمور، (بخيتة)تبدو أصغر عمرا من جراء فرحتها، عند اليوم العاشر من مارس من العام السابع والتسعين بعد الألف وتسعمائة، هاتفته لتخبره بحضورهم بعد أربع أيام، الأب غادر إلى العزبة، طالبا من العم أن يشاركهم فرحتهم، أخبره أنه سوف يرسل له سيارة تصحبه بالرحلة

الطويلة، سوف تكون هناك العديد من محطات الراحة، تقديرا له ولحالته الصحية، حين يتحدد الموعد النهائي للزفاف، حاول العم الاعتذار بشده، لم يمنحه أي فرصة للرفض، ثم سوف نرسل أتوبيسا لمن يرغب من الأهل، وعده العم بالخير.

..كان منتظرا بصالة الوصول، شاهدها تخرج وحدها ، الدهشة اعتلت وجهه، لم تخبره بأنها آتيه وحدها، ترك دهشته جانبا، وأقبل عليها مرحبا، استقلت سيارته، قالت أن أبيها لديه بعض الارتباطات، وبالضرورة لن تتركه الأم وحده، اخبرته أنهم يأتون قبل حفل الزفاف، الذى توافقا عليه، وتتمنى أن يكون مناسبا له، حدودا العاشر من إبريل موعدا، لم يبد أي اعتراض، طلبت أن يذهب بها إلى أي فندق، رفض تماما، سوف تقيمين مع (بخيتة) بحجرتها بشقتنا، على الأقل تكونين محظوظة بحنانها، وافقته هي ترغب بالتقارب مع أسرته الصغيرة، وصلا إلى الشقة، حمل حقائبها، طرق الباب بنقراته المعتادة، فتحت الأم، فوجئت بها، صاحت مهللة بصوت يرتدى كل ألوان الفرحة.

-أهلا أهلا أهلا، تعالى يا حبيبتي، نورى سكننا وحياتنا، بادلتها العناق، جلست تلتقط أنفاسها، وقت قليل، نهضت

وفتحت إحدى الحقائب، أخرجت كيسا كبيرا، ناولته للأم، التي أسرعت لفتحه، أخرجت عددا كبيرا من العباءات، مختلفة الألوان، وأغطية رأس تحمل ذات الألوان، مطرزة تطريزات برسومات فرعونية، لم تجد الأم من تعبير أبلغ من النهوض، وأخذها بين أحضانها، تمطرها عددا غير محدود على وجهها، وعلى رأسها، وصوتها يعلو بالشكر، خرج من حجرته الأب، الذى كان نائما، رحب ترحيبا حارا بها، ببعض كلمات إنجليزية تعلمها من طول فترة تعامله مع العديد من البعثات، أخرجت له بدله على جيبها، مرسوم قناع توت عنخ آمون بألوانه الزاهية، ورباط عنق مناسب، ومناديل حريرية، قفزا ناهضا من جلسته، وأخذ رأسها بين كفيه، وتقبليها متبوعة بقوله، الله وحده من يعلم كم أنت لدينا، رغم أنى لا أحب سوى العباءات إلا أنني سوف البسها من أجلك يوم عرسك، ترجمها (فريد) لها، قفزت من مجلسها وعانقت الأب بحرارة، قبلت رأسه، طلبت منهم أن تدخل للنوم قليلا، التفتت إليه قائلة.

- ضع في اعتبارك، عند صحوي، سنذهب للجلوس أمام النيل، بصدق أشتاق له، يأسرني سريان مياهه، تشعرني أنها طريق حياة، كأنها متوالية أيام وشهور وسنون، كن مستعدا

حتى لو صحوت منتصف الليل ثم بالصباح الباكر أريد الإفطار على عربة الفول،

أعقبت قولها ضاحكة، وأخذت طريقها إلى حجرة نوم(بخيتة)، التي تعرف طريقها جيدا، هي ألفت المكان بكل تفاصيله.

غلبها النوم لوقت طويل قارب الساعات الست أو أكثر، نهضت، قامت ببعض التمرينات الرياضية لتنشيط جسدها، طرقت الباب من الداخل تنبيها لهم، فتحت الباب، ألقت إليهم بالتحية، أسرعت إلى الحمام، غسلت وجهها، خرجت مشرقة، جلست معهم، تبادلهم بعض الأحاديث، نهضت الأم، أحضرت لها كوبا من اللبن الدافئ محلى بالعسل، شربته بتلذذ، أشارت (لفريد) بالنهوض لارتداء ملابس الخروج، دقائق وجاء متأنقا، تأبطت ذراعه، أشارت لهم بالتحية. تريد السير على الأقدام، وأن تتشابك أيديهم، كانت بين اللحظة والأخرى تضع رأسها لتوان على صدره، جلسا أمام النيل، أحضر لها كوبا من مشروب حمص الشام الساخن والحار، أول رشفه لها جزعت، ولكنها أكملت على عجالة، طلبت كوبا آخر، للمرة الأولى يسكبان نبضهم للآخر، كانا فيما قبل، يكتفيان بلغة العيون، العيون أكثر الحواس تعبيرا عن ما

تجيش به الأفئدة والصدور، حكت له عن نبوءة العرافة، ان هناك مستقرك، تمسكي بحلمك، الأحلام لا تنتظر طويلا، لم تكن تصدق أقوال العارفين والعرافات، كما أقنعها الأب بهذا دائما، عملا بالقول الذى سمعته كثيرا، كذب المنجمين ولو صدقوا، يقال أن لكل قاعدة استثناء، وانا أرى يوجد بالتنجيم استثناء، فهم يصدقون أحيانا، وما هم به يؤكد هذا، حكت له لحظة رؤيته للمرة الأولى، أحسست كأن هنا قوة مغناطيسية اخترقتني، رأيت بك أمورا لم أفسرها حينها، ولكن مع الأيام، تبينت أنها سهام الحب، التي لا يستطيع أحد التصدي لها، حكى لها أنه رغم تعدد سفرياته، ورؤيته للكثيرات، إلا أنه يعترف، ان لحظة مشاهدتك، ودهشتك التي كانت عنوانك بالمعرض، تذكرت حلمي القديم، حلمت مرارا بإنسانة مختلفة، مغايرة تحمل بملامحها، ملامح جداتي القدامى، أرى بها نفرتيتي، حتشبسوت، إيزيس، شددتني من اللحظة الأولى، لا أنكر أنى تخوفت، تخوفت أن يكون إعجاب لحظي، أو تكونين مثل غالبية فتيات الغرب، تعيشين الحياة، طولا وعرضا، ولكن عندما زرتكم للمرة الأولى، كان المؤشر جيدا، وجدت حميمية الأسرة، أسرة لها خصوصيتها، أحسست أنها أسرة لها ميثاق حياة، نمط حياتي مخطط

بعناية، لضمان الحفاظ على حقوقها دون التعدي على حقوق آخرين، وجدت عقولا مستنيرة، وجدت تصالح مع النفس، هنا أيقنت أن حلمي، أصبح واقعا ملموسا، وأيقنت أن الأحلام تأتى مجسدة، من يمسك بها ويصر عليها، يحصل على رصيد هائل لا ينتهى من السعادة، تقاربنا أكد على حقيقة هامة تغيب عن كل العالم، أننا أبناء أب واحد (آدم) وأم واحدة (حواء)، للأسف الكل تناسى هذا تماما، وأصبح الجميع دائمو البحث عن المصالح، حتى لو اغتال مصالح وأحلام الأخربين، أخذهم الحديث لوقت طويل، هي كانت مبحرة بعالم المشاعر، وسط مناخ جميل، النيل وصفحته التي تتلألأ عليه الأضواء، بألوان متعددة، قوس قزح ضوئي، بين الخفوت والإبهار، داعب وجوههم هواء النيل المنعش، نهضا، سارا أصابعهم متشابكة، تتقافز على الطريق برشاقة لاعبة بالية، عندما وصلا، ذهبت إلى حجرتها، التفتت إليه، لا تنس أن تستيقظ باكرا، أريد الفطور على عربة فول، ابتسم لها، أشار لها بأن تذهب لتستريح، كانت سعادته الأكبر أن يراها تسرع بخطواتها نحو طقوسهم الحياتية.

..صحت من نومها على يد تمرر على وجهها وعلى شعرها، مصحوبا بكلمات بصوت بين الخفوت والعلو،

تمتمات لا تفهم لغتها، ولكن موسيقاها أشعرتها كأنها تعرفها، تذكرت قراءتها بالنسخة المترجمة من القرآن، قراءة القرآن، بعديد اللغات واللكنات، لها رنين واحد، سبحان الله، ظلت(بخيتة) على ترديد أدعيتها، كان الوقت قريبا من الفجر، الذى أتى آذانه من الكثير من المساجد، القاهرة صاحبة الألف مئذنة، مؤكد زاد هذا العدد كثيرا، كل الشوارع والحوارى والأزقة، بها مساجد، حتى شطأن الأنهار والترع والمصارف بها مساجد وزوايا صغيرة، المساجد حراس للبشر وللأماكن، هذا إيمان راسخ داخل الناس، نهضت تناولت رأسها بين كفيها، غمرتها بالقبلات، نهضت تنفض عنها غبار النوم والكسل، دخلت الحمام، اغتسلت، عادت ترتدى ثياب الخروج، ترتدى فستانا طويلا، أسود ألون، به بعض النقوش الفرعونية، ترتدى غطاء للرأس، يخفى شعرها، إلا من خصلة صغيرة أطلت منه وتمردت عليها، خرجت ووجدته جالسا، مرتديا قميصا سماويا، وبنطال أسود اللون، علت وجهه علامات الدهشة، لم يجد تفسيرا لما يرى، همس، ربما هذه أولى المفاجآت، بادلها الابتسام، أخذ يدها، ألقى التحية على أمه، أباه كان قد ذهب للصلاة، هو كان قد صلى بالبيت، خرجا متشابكي الأيدي، الأنامل تداعب

الأنامل، سارا قليلا حتى مكان السيارة، المحلات فتحت أبوابها، كل مذياع يذيع قرآنا، وأغانيَ تنساب منها، أغاني صباحية، يا حلو صبح، يا حلو طل، صبح يا جميل ، يا جميل صبح، لفت نظرها حاملي طاولات العيش، يركبون الدراجات، تتراقص بهم الدراجات، صورة بديعة، الكل يسرع لعمله بحثا عن الرزق، الوجوه مشرقة، ترى شفاه تتحرك، سألته عنها، أجابها، إنها دعوات لله ان يجعل يومهم مليئا بالبركة، وصلا إلى حيث عربة الفول، رغم ساعات النهار الباكرة، إلا أنها مزدحمة، جلسا على إحدى الموائد، كان صاحب العربة قد رحب بهم، فهو من النوع الذى يحتفظ بصور رواده دوما، التهما الطعام بشهية، نهضا، أسرع بها إلى مقهى قريب، طلب كوبين من الشاي، بعدها صعدا للسيارة، نظر إليها متسائلا، إلى أين.

- اذهب بي إلى الأزهر الشريف.

أصابته دهشة شديدة حتى أنه فتح فاهه على سعته.

- لماذا؟

- لا تتعجل، آلا تقولون كل شيء له ميعاد.

الصمت أطبق عليهما، حتى وصلا إلى المشيخة، نزلا، سبقته ببضع خطوات، اقتربت من الاستعلامات، سالت عن الشيخ (منصور عبد الباسط)، سألها عن اسمها، أجرى اتصالا، أخبرها أن الشيخ بانتظارها، تقدمها حتى المكتب، دخلا، الشيخ يرحب بها، بشكل يوحى أن ثمة حديث ومعرفة سابقة بينهم.

- أهلا أختنا، تشرفنا بك، تحت أمرك.

فتحت حقيبتها، أخرجت مظروفا، ناولته له، فتحه، كلما قرأ، كلما زادت مساحة السعادة على وجهه، (فريد) يجلس في قمة القلق والدهشة، لا يدري كنهه ما أمامه، تحدث الشيخ.

- عظيم، جميل هذا مرحبا بك في معية الله والإسلام، نحن تحت أمرك.

- شيخنا، لقد أنعم الله على بنعمة الإسلام، وأعلنت هذا على أحد الشيوخ بأحد مساجد لندن، ولكنى أود إعلانه هنا، الأزهر هو المنبر الأكبر للإسلام.

- أهلا بك، هذا أمر يزيدنا شرفا، انطقي بالشهادتين.

- أشهد أن لا إله إلا الله، وأن سيدنا محمد رسول الله.

نطقتهما بالعربية المكسرة الخاضعة للكنتها الأجنبية.

-هل تجيدين الوضوء والصلاة.

- أعرف عنهم كل شيء ولكنى لم أصل بعد، وعدت نفسي منذ أن أعلنت إسلامي، ان تكون صلاتي الأولى بالأزهر الشريف.

أكرمك الله، سؤال اخير، هل كان دخولك للإسلام بإرادتك كاملة، أم تعرضت لأي إملاءات.

- أبدأ شيخنا، حتى خطيبي هذا لا يعلم حتى اللحظة أنى أعلنت إسلامي، كل قرار أخذه بحياتي لابد لي من قناعاتي غير المنقوصة.

- مبارك لك، ومبارك لنا لدخولك الإسلام، هل اخترت اسما لك، حتى نصدر وثيقتنا.

- نعم، رشيدة مصطفى الهميلى، مع الاحتفاظ باسم الأب والأم الأصليين بالوثيقة.

- على بركة الله.

نادى أحد معاونيه، أعطاه ورقه بالبيانات، طلب جواز سفرها، ناوله للموظف، طلب منه استدعاء إحدى العاملات بمجال الدعوة.

كان هذا يتم (وفريد) على رأسه الطير، جالسا بلا أي حراك، وإن كان داخله مضاء بشكل كبير، أتت إحدى السيدات، أفهمها الشيخ المطلوب، مدت يدها إليها، أخذتها خارجا، أخذت تعلمها كيفية الوضوء، تكلمها بذات لغتها، تعلمت جيدا بعد عده محاولات، علمتها الصلاة، حتى استطاعت الصلاة بمفردها، أثنت عليها السيدة لسرعة فهمها، عادت بها، أكدت للشيخ على ما طلب منها، شكرها، أسرع بتقديم شنطة مليئة، بمصحف مفسر كبيرا باللغتين العربية والإنجليزية، وسجادة صلاة، ومسبحة، حياها، دعا لها بالفلاح، ودعهما.

- بالسلامة أخت (رشيدة)، بانتظارك دوما لأي شيء يغمض عليك، بالنسبة لوثيقة الإسلام، أيام قليلة تكون جاهزة، اتركي أرقاما نخاطبك عليها.

شكرته، كتبت له رقم (فريد). وللمرة الأولى منذ دخل إلى المشيخة، تقدم إلى الشيخ، عانقه. قبله على كتفيه، نزلت بعض دمعات معبرة عن كم لا يوصف من السعادة.

طار بها إلى البيت، صاح مناديا أباه وأمه، هتف بهما.

- سلما على(رشيدة مصطفى الهميلى)، نظرا إلى بعضهما يتساءلان.

- لقد خرجت (لويزا) وعادت إلينا (رشيدة مصطفى الهميلى)، شرح لهم الحدث، أخذتها (بخيتة) بين أحضانها، تقبلها، بكت بدموع غزيرة، شاركتها البكاء، بكاء، مشوبا بالفرحة. الأب جلس على أقرب مقعد رافعا يديه للسماء، يبتهل ويدعو بصوت عال، ختم دعواته.

- أشكرك ربى، تكاثرت نعمك على، ربنا يقدرني أكن مستحقا لها، أنت الرحمن الرحيم.

..17..

أنـا مِصْرِيّةٌ

وصل الأب والأم بمصاحبة الجدين والجدتين، يتوكآن على عصا غليظة قبل أربع أيام من حفل الزفاف، تم الاتفاق على عقد القران، بالأزهر الشريف، حسب رغبتها، بعدها يتحرك الجميع إلى حيث مكان الحفل، الرحلة تستغرق وقتا طويلا، اتفقا على الشهود، (د.زاهر) والجد (حسن)، كان هناك أزواج البنات ورفقاء (فريد) يشرفون على كل التجهيزات، يتابعون معه كل التفاصيل، الدكتور(زاهر) على تواصل دائم مع المشاركين بالحفل، من استعراضات، رقصات، موسيقى، في صباح يوم عقد القران، تحرك رهط من السيارات بوقت واحد، العروسان بسيارة يقودها أحد أبناء عمومته، زينت بزهور على شكل قلب، مكتوب عليه إسميهما، السيارات تطلق أبواقها، تشاركها أحيانا أبواق سيارات تمر بهم، محيط

الأزهر، اكتظ بالسيارات، دخلت إلى الرواق، تحيط بها بنات عمومته، وأختاه، وبناتهن، أحاط به الأهل وبعض الأصدقاء وزملاء العمل، أديا صلاة الدخول للمسجد، ثم أديا صلاة العصر، بعدها جلس بحضرة الشيخ الذى سيعقد القران، وضع يده بيد أبيها الذى أصر على هذا، وقال سوف يردد كل ما يطلب منه، الشيخ يقرأ صيغة العقد، كل جملة يترجمها (فريد)، يرددها الأب، تتهلل أسارير كل منهما، انتهوا، عانقه الجميع، وعانقها الجميع، خرج يدها بيده، السيارة تسير بهم بهدوء، يريدون أن يشهدوا كل المارين، والأماكن بأنهم أصبحوا ازواج، السيارات تسير أمامهم وخلفهم، الأب والجد بسيارة مجهزة لراحة الحاج (حسن) والحاج (عبد الوهاب) الذى أصر على دعوته، السيارات تنهب الطريق، ساعات السفر طويلة، أغان أفراح تنبعث من كل السيارات، استراحوا أكثر من مرة، تنالوا بعض العصائر، وصلوا بعد العاشرة، قادهم الأب إلى الأماكن المخصصة لهم، كان بعض المعارف القدامى، من عملوا معه سابقا، كل منهم أصر على استضافة البعض ببيوتهم، خلدوا للنوم، هي ذهبت مع أسرتها إلى بيت(جلال)، (فريد) أخذه صديق مقرب إليه هو والدكتور(زاهر) لأحد لفندق يعمل به، نام نوما عميقا، لم

يشعر بشيء، فقط تتناهى إلى أسماعه مهاتفات الدكتور المتتالية، يطمئن على كل شيء، هو أب روحي له، لم يستيقظ إلا على رنين الهاتف الداخلي، الدكتور مستلقى على فراشه، ذاهبا بالنوم إلى أبعد حد، كان على الطرف الآخر، الأب، يريده ان يأتي، الجد (حسن) يريده، طلب منه دقائق ويكون معهم، أسرع بارتداء ملابسه، وجدهم ببهو الفندق، قبل رأس الجد، صافح الأب مقبلا يده، جلس بينهم، أمسك الجد يده، نظر إليه بتمعن.

- (فريد)، أولا أشكر الله أن أمد بعمرى حتى أشهد هذه اللحظة، حفيد الغالي الذى يجيئ لي كل لحظة، يوصيني بك، هذه حقيقة لا أخترعها، لذلك لدى أمانة، أوصتني بها أم جدك، وصية لم أذكرها لأحد من قبل، حتى أباك، مد يده بجيبه، اخرج كردانا ذهبيا ضخم، مد يده به إلى فريد، جدتك الكبرى قالت، هذه أمانة كن حريصا عليها، تعطيها لأحد أحفاد ولدى(محمد)، ليلتها بكت بكاء لم أشهده عليها من قبل، وها أنا أوفى بأمانتها، قدمها هدية وبركة العروس، أخبرها أنها من جدتك الكبرى، متوارثة من أزمان بعيد، لا نعرف مسارها، ورثها لذريتك من بعدك، كن حريصا عليه، هو تاريخ، لن تجد له مثيلا، لا بخامته ولا صناعته، أريدك أن

تضعه بعنق عرسك بليلة عرسك، اجعلنا نعيش الماضي بهذه اللحظة، بارك الله فيكما، وطوق أعناقكم بالسعادة.

نظر إلى أحد أبنائه، يقف على مقربة منهم، تقدم الابن إلى أبيه، مد يده بحقيبة صغيرة، أخذها الجد، قدمها إلى (فريد).

- وهذه هديه عرسك من العائلة، هذه عاداتنا دائما.

أخذها منه، أعطاها لأبيه، تقدم إلى الجد معانقا ومقبلا له.

-ربنا يمتعك بالصحة والعافية، وتظل دوما شمسا تنير حياتنا.

الأب فتح الحقيبة، ألقى نظرة سريعة على محتواها، مبلغ كبير من المال، نظر نظرة امتنان لعمه.

- هذا كثير يا عمى، يكفينا أن تكون بيننا.

أشار إليه بالكف عن الحديث.

- هذا ليس ابنك وحدك، ابن العائلة بكاملها.

..أثناء جلوسها تحت أيدى من يقمن بأعمال الكوافير لها، ومن ينقشن الحناء على يديها وقدميها، طقس دهشت به كثيرا، ولكنها عندما رأت الرتوش الأولى، سعدت وطلبت وضع أشكال متعددة على ما هو متاح منها، خليه نحل تعمل كل التجهيزات لها، أغان أفراح تأتى اليها من جهاز كاسيت،

فجأة تنامى إلى سمعها، موسيقى وغناء، أغنية (شيء من بعيد ناداني)، أشارت اليهن بتوقف عملهن، تريد الإصغاء تماما للأغنية، أشارت إلى إحدى زوجات أبناء العم، تحدثت معها بلغتها، سألتها عن الأغنية، أفادتها أنها أغنية لمطربة شهيرة اسمها (شادية)، وترجمت لها الكلمات، ضحكت بشدة وقالت.

- هذه الأغنية لي أنا، فعلا شيء من بعيد ناداني، من فضلك أريدها لدى، أشعر كأنها كتبت تعبيرا عنى، لقد كان هناك نداء دائم لي، تحقق كما ترين.

- حاضر

طلبت من صاحبة المكان ان تكرر هذه الأغنية خلال وقت وجودها، وجدت نفسها تكرر، شيء من بعيد ناداني، بلكنتها الأجنبية، وببعض العربية المتكسرة أحرفها، شاع جو من المرح بين المراهقات لها، بل بدأن بغناء الأغنية بشكل جماعي.

..كان بانتظارها أمام الكوافير لساعات طوال، يحيط به جمع من الأهل والأصدقاء، يشاكسونه، يداعبونه، يتضاحكون، يتراقصون، تصاحبهم فرقة من لاعبي الرقص بالعصا

والتحطيب، عندما خرجت، تناول يدها، صنع الجمع دائرة، كانا بالمنتصف، قرع دفوف وطبول ومزمار، رقص خيول، وتنورة، راقصها كثيرا، حتى تفصد وجهيما عرقا غزيرا، أنقذتهم من الاستمرار إحدى أخواته، تقدمت وتناولت يد العروس، وسارت بها خارج الدائرة، أدخلتها السيارة، أشارت لأخيها بالإسراع، توسطت سيارتهم رهطا كبيرا من السيارات، السيارات تتراقص، تصدر أبواقا عالية منغمة، تخرج من نوافذها بعض البنات اليافعات، يطلقن الزغاريد، والغناء والتصفيق، السيارات ذات الأسقف المكشوفة، بعض النسوة الصغيرات بداخلها يتراقصن، يملن يسارا ويمينا، كرنفالا من الفرحة، هي بحالة ذهول وانبهار بما تراه، حتى الأفراح هنا مغايرة، حكت له عن الأغنية التي أعجبتها وعبرت عنها، تضاحك معها، أظن كاتبها كان متخيل نداؤه هذا لنا، اقتربا من مكان الحفل، ما إن وصل على مشارفه، وجد أصدقاؤه وجيرانه، يقفون على الجانبين، بجوارهم أقفاص ملونة، بداخلها عدد كبير من الحمام، أطلق سراحه في عنان السماء، لحظة وصلهم، كون خيمة بديعة، حمام متعدد الألوان، احاطت بالسيارة فرقة عازفي المزمار، بلباسهم الموحد والملون، تلف حول السيارة، يتراقص

العازفون، أحاط بهم أيضا الفتيات والنسوة، يطلق صيحات الفرح والزغاريد، أسرع أحد العازفين بفتح باب السيارة، تناول يده، أنزله، بدوره تناول يدها أنزلها، دائرة العازفين أحاطت بهم، تشابكت أيديهم، قاما بالرقص بطرق مختلفة، بعضها سولو، وبعضها أشبه بالسامبا، وهزات بالشكل البلدي، الزغاريد تصاحب كل خطوة، وقت طويل وهم على هذا الحال، خرجا من الدائرة، سارا بين صفين من أطفال وطفلات بسن صغير، يرتدون ثيابا تحمل على صدورها، قناع توت عنخ آمون بألوانه الزاهية، هذا الفرعون سبب تعارفهم، بأيديهم وردات بألوان متنوعة، ترافقهم معزوفة (أبو سمبل) وسط صيحات وتهليل الحضور، جلسا على أماكنهم المعدة لهم على شكل زهرة لوتس، الطلقات المضيئة تملأ سماء المكان، صدحت أغان كثيرة للفرح، الرقص مستمر بحضورهم وبدون حضورهم، أخذ يدها ومر بين الحضور لتحيتهم، تصاحبهم بخطواتهم موسيقى(إيزيس)، عادا لمقعديهما، نهض الأب مع أزواج بناته، أخذوا للرقص بالعصا، وبعض ألعاب التحطيب، كل فترة تقترب منهما إحدى النسوة، برفقتها طفلة صغيرة، تحمل سلة صغيرة مملوءة ورودا، تتناولها الاثنتان، تنثران الورود على

رؤوسهم، وسط ضحكات عالية، الجد (حسن) يميل بين الحين والآخر على الحاج (عبد الوهاب) هامسا.

- ليلة من ليالي العمر، رحمك الله يا أخي، الحمد لله أن لك ابنا وحفيدا، وبأمر الله أجيال قادمة تحمل اسمك، أنا أشعر كأن جبالا قد أزيحت من على كاهلي.

الدكتور(زاهر) يتحرك ذهابا وجيئة، يتابع كل شيء، يبدى بعض الملاحظات، لم يجلس مطلقا، وجهه متورد ترتسم عليه فرحه، هو يشعر أنه يزف ابنه.

كانت ليلة بهيجة استمرت حتى تباشير الصباح.

..أخذتها السيارة حتى الفندق، تصاحبهم دقات الدفوف حتى مكان السويت الذي حجزه لهم الدكتور(زاهر) هديه فرح منه لهم لمدة أسبوع، من إن دخلا مكان إقامتهم، كانت الإضاءات خافته، تتنوع ببن عديد الألوان، تركته لتغيير ثيابها، غابت لحظات، أتت مرتدية عباءة وغطاء رأس أشبه بالحجاب، تحمل بين يديها صينية، عليها كوبان من اللبن وبعض التمرات، كانت قد أوصت أختا له عليها، منبهة عليها بعدم معرفته بهذا، اجعليها مفاجأة له، قدمت كوبا له وحبه تمر، طلبت منه الذهاب لتغير ملابسه، والوضوء، قائلة.

- أليست هذه من طقوسكم، الصلاة قبل أي أمر، هيا أسرع لتصلى بي.

ألجمته كلماتها، كيف ومتى عرفت كل شيء، يبدو أنها درست كل شيء، لم يفاجأ، هو عرف عنها حصافتها والذكاء، التي تقرب المسافات بينهم.

..سارت بهم الحياة سيرا حثيثا هادئا، كانا يتنقلان حسب الوقت، بين القاهرة، مقر إقامتهم، وبين العزبة التى نالت إهتماما كبيرا منها، كانت ترى الحياة هناك تسير بسلاسة وبلا منغصات، الكل به حالة رضا وقناعة، يهتم بشئونه دون أن يقارن بينه وبين غيره، كانت ترى الحياة الريفية بها لوحات عفوية جميلة، كانت تحب الجلوس بين النسوة، تسمع حكيهن، نسوة حتى لو كن صغار السن، يتمتعن بحنكة وحكمة، يدرن شئون أزواجهن وأولادهن بحكمة، يوفرن على بساطة حياتهن جوا من السعادة، تجلس إلى الجد (حسن) تسمع الحكايات عن العائلة، ورحلتها من بداياتها، تستمع إلى حكمته وفطنته،وتحليلة لبعض الأحداث بواقعية، قد تتجاوز فكر الخبراء، تذهب إلى القرية بالصعيد، تنتقل من أجواء حياتية إلى أجواء مغايرة، ولكن بها تشابه بكثير من السمات، بسرعة تعلمت بعض العربية، تصر على الجلوس

كثيرا مع (بخيته) تطلب منها الحكى عن زوجها، منذ طفولته، نوادره، مشاكساته، أصحابه، مر العام الأول على زواجهم مليئا حبا وتفاهم، ولأن السماء الصافية تعكر صفوها بعض الغيمات السوداء أحيانا، هكذا الحياة متقلبة، تلبدت حياتهم فجأة وبلا مقدمات، حين تمت مهاتفتهم، بوفاة الحاج(حسن) أسرعوا إلى العزبة، طلبوا منهم عدم تشييع الجثمان إلا بعد وصولهم، بكوه كثيرا، أصرت على مصاحبتهم، شاركت النسوة تلقى العزاء، قام أحد أبناء الحاج بإعطاء مظروف مغلق للأب، لم يفتحه إلا بعد أيام العزاء، قرأه مرات.

-(جلال)، هذه الأسطر القليلة، وصيتى لك، أرجو أن لا تخل بها، إخترتك أنت رغم أنك لست من صلبى أنا، ولست أكبر الأبناء لكل أولاد عمومتك، إخترتك رغم الوقت القصير الذى عشته معك، توسمت بك حكمه وبصيرة أكبر من سنوات عمرك، لذا أرجو أن تكون دائم التواجد بين أهلك، كن دليلهم بأمور حياتهم بالحب وبالحسنى، هم يرحبون بك، كثيرا ما حكيت لهم عن فهمك لكثير من الحياة، هذه وصيتى أمانة بين يديكم، فلا تخل بها، ولا تضع الأمانة، أكرمك الله.

بكى كثيرا كلما عاود القراءة، قرر لحظتها إنتقال سكناه بشكل كامل إلى العزبة، مع زيارات على فترات متقاربة متبادلة بينه وبين بناته و أزواجهن.

..طلبت من (فريد) التواجد بكل أجازاته (إجازاته) بالعزبة، وافقها، فجأته يوما بحملها، تراقص يومها كثيرا، أخذ يقبلها مرات ومرات، إتفق مع طبيبة متخصصة لمتابعة حملها، طلب منها عدم الإرهاق، الأم تأتى على فترات لمتابعة زوجة ابنها لبعض الوقت، عندما إقترب موعد الوضع، أتى أباها وأمها، تم الوضع بيسر، أنجبت توأم، أصرت على تسمية الولد(آدم)، والبنت (حواء)، قالت.

-أليسا هما سبب البشرية، لذا لابد من تخليد أسمائهم.

إستجابا لمبررها، كان يوم سبوعهما يوما مشهودا، الأهل تجمعا، تم ذبح ذبائح وزعت على الجيران، على مدار سنوات قليلة إنصهرت تماما بالحياة المصرية، صارت لصيقة بها، تقاربت مع الجيران، حتى ببنايات أخرى، تفاعلت مع مناسباتهم، أفراح وأتراح، كانت تبدأ يومها باكرا، تفتح كل النوافذ، حتى يتجدد الهواء، توجه مؤشر المذياع على القرآن الكريم، القرآن الكريم بركه وتصالح نفسى، تجلس بأحد الأركان، ترتل القرآن، تعد فطور الأولاد،

تأخذهم إلى مكان إنتظار أوتوبيس الحضانة والمدرسة فى سنوات تالية، تطمئن على أخذ مقاعدهم، التلويح لهم بيديها مع إرسال قبلات لهم، تعود لإعداد فطور زوجها، تضع شريط الكاسيت الذى به أغنية، شيئ من بعيد نادانى، تعيدها مرات، الأغنية تعود بها إلى سنوات مضت، تفاعلت مع أحداث مصر، تتناقش مع زوجها، ومع جاراتها حول بعض الشئون، السياسية، والإقتصادية، يتبادلن الآراء فى أمورهن الخاصة، تصحب الأولاد للتجول بالشوارع، تدخل بهم إلى محال الفول والطعمية، والكشرى، تقربهم من مجتمعهم، تحكى لهم عن جدهم وجدتهم من الطرفين، تحكى لهم عن الجد(حسن)، أتت لهم من الصغر بمن تعلمهم القرآن، عندما تلمح دهشة على بعض وجوه المارة، ودهشتهم لملامحها الأجنبية، تبتسم وتخاطبه، أنا مصرية، والله مصرية، عند بداية أحداث ثورة الخامس والعشرين من يناير، كانت تجلس أمام التلفاز، تتابع الأحداث، السعادة تملأ جوانحها، الكل إنصهر ودخل بوتقة الوطن، نسى ورمى همومه وحياته الخاصة، وإنتبه لمصالح وطنه، الكل صار واحد، وبعد أيام إختطفت الثورة، وألقى الإخوان المسلمين عباءتهم عليها، الغصه كانت.مريرة بصدرها، سمعت الكثير عن دمويتهم،

وعن أنهم يرون المجتمع.من منظور أحادى. وعلى الجميع الإنصياع لمنهجهم دون أى نقاش، رأت العنف، والتدمير، والتعدى على المقرات الشرطية وحرقها، وسحل المواطنين، والحرق، كانت تبكى وتصرخ.

- لماذا، هذه بلد لم تفرّق يوما بين مسلم أو مسيحى أو أى منتمى لديانات أخرى، لكل دينه، بإطار عدم الإخلال بنظام البلد.

أصرت للنزول إلى الميدان، بعد جدل.كبير مع زوجها، أصرت ونزلت إلى المستشفيات الميدانية، تقدم إسعافات أولية للبعض، سمعت العديد من الحكايات، تذكر هذا الرجل، ناحل الجسد، يكاد يكون هيكل إنسان، جلد على عظم مثلما يقولون، ترتسم على ملامحه كل ألوان المشقه، حكى لها، أنه بائع متجول، يجوب الشوارع والحارات يبيع بعض الخضروات والفاكهة على عربته الخشبية التى أصابتها الشيخوخة مثله، هو العربة التى يجرها رفقاء من زمن بعيد، والتى لا يملك من حطام الدنيا غيرها هى وصوته الذى ينادى به على بضاعته، قال إنه كان يسير مثل كل يوم ببضاعته، يرى هرولات وهتافات وصيحات، تغافل عنها أيام. ولكنه بيوم وجد نفسه يترك عربته بجوار أحد البيوت ويهرول، يدخل

وسط الجموع، يصيح ويهتف، وينادى بالحرية لمصر، هرولته كانت نداء رن بداخله، ألست ابنا لهذا البلد، لا تتراجع عن التعبير عن نفسك، وأظن أن هذا النداء أصاب الكل، بين مصر وأبنائها حبل سرى، صعب الأنفصام عنه، وبالفعل كنت دوما وسطهم، حتى ضربنى أحدهم بعصا غليظة على رأسى بلا مبرر كما ترين، سوف أشفى وأعود، تصدقى ان معيشة أبنائى لم تتائر (تتأثر)بعدم عملى، الكل قلبه على الكل، فعلا نحن شعب تعلمه الأزمات الكثير والكثير، حكايات عديدة سمعتها، وتعلمت منها دروسا كبيرة، أن الإنتماء يولد مع الإنسان، القوى المؤمن ببلده هو من يظل منتميا له، كلما سمعت أو شهدت حرق أى منشآت أو بنايات، كانت تبكى وتتوجع، وتندهش لمصرى يقتل مصرى، قرأت بكتب كثيرة إقتنتها، عن هذه الجماعة أنها جماعة أسست من خلال أجهزة إستخبارياتيه لزعزعة إستقرار الوطن، أرادت أن تثير الفتن والطائفية، منهجهم العنف والحرق والقتل، التاريخ لا يكذب، كم إ غتالوا من ساسة، ومن قضاه، ومن رجال دين، ومن أفراد بسطاء، الترويع والتخويف والتخوين شعارهم، حادث المنشية دليل على خستهم، قتل السادات رغم أنه منحهم الفرصة لأن يعودوا لحضن الوطن، فكان رد

الجميل قتله، قرأت وأدركت أنها فئة لا تنتمى إلا للدم، كانت تصلى وتبتهل إلى الله أن يزيح الغمة ولا يطول الأمر، زوجها كان كل يوم يزداد ولها بها، لحرصها لأن تكون مصرية قلبا وقالبا، حتى كل من عرفها، قالوا هذه المرأة رضعت المصرية إلى حد الثمالة، الأيام المتتالية بعد أحداث يناير، تسير بخط بيانى هابط، أتوا إلى سده الحكم بتزوير الإرادة، بشكل مثيل للإغتصاب تحت أبصار وأسماع الدول التى تصفق لتشتيت وتفكيك الدول، أحداث مريرة مرت بها الحياة المصرية خلال فترة حكمهم، حرقت كنائس بخسه، عذبوا الكثيرين بأساليب كلها وحشيه، مابقى لهم إلا إلقاء الشعب بالمحارق، أنهم النازيون الجدد، يرتدون مسوح الدين وهم أبعد ما يكونون عن فهم الدين، هم ينتمون لدين آخر إخترعوه، ووضعوا كتابه الخاص بهم، الصدور تزداد كل لحظة بغضا ومقتا لهم، منحهم الشعب الفرصة مرات ومرات، للعودة إلى الرشد، ولكنهم أبدأ لا يبصرون، ينطبق عليهم قول المولى عز وجل (صم، بكم، هم لا يبصرون)، إنتهت كل محاولات النصح لهم، فكان لابد من النهوض والتصدى وتمزيق عباءتهم، علمت بأن هناك حركة تستهدف جمع توقيعات الشعب لسحب الثقة من حكمهم، ومن حكم

المرشد، أسسها شباب وطنى، يعى ويدرك خطورة الموقف، وما ستئول إليه مصائر الدولة والشعب بحال إستمرار هذه الفئة والجماعة الضالة، سألت عن كيفية الوصول اليهم، بعد جهد إستطاعت التوصل إلى مقر لهم، طرقت الباب، دخلت وقف الجميع دهشة متسائلا، ما هذه السيدة ذات الملامح الغربية؟ وماذا تريد؟ هل هى مراسلة صحفية تريد معلومات عن الحركة؟، أم أنها تنتمى لجهه أجنبيه تريد أن تكون عينا لهذه الفئة؟ قبل أن ينال منهم التوجس، أخرجت هويتها، وشرحت لهم عن أنها مصرية، عشقت هذا البلد بكل ما فيه، وأنها جاءت لتنال شرف الإنضمام لهم، تشاركهم بتفعيل حركتهم النبيلة، طلبت منهم التحرى عنها وعن عائلتها، ولكن مطلبها الآن، أن توقع إستمارة تمرد، وتنال شرف هذا مبكرا، تبدلت نظرتهم بعد حديثها لحد كبير، منحوها الإستمارة، بعد التوقيع وملئ البيانات، أسفل التوقيع كتبت بخط كبير، أنا مصرية.

..18..

صَفْوُ الحيَاةِ

انغمست تماما مع حركة تمرد، تأخذ أعددا من الاستمارات، تمر على شقق المنطقة التي تسكنها، تمر على المحال والشركات، كانوا يستقبلونها بفرحة، وقول دائم يقال لها: إن كنت تحبين مصر على هذا النحو، فكيف لا نذوب نحن بحبها، كانت دوما بحركة مكوكية، كلما وجدت الوجوه ترتسم عليها علامات عدم الرضى والأسى من هيمنة هذه الجماعة التي لا تؤمن بوطن أو هوية، ولا بمفهوم الدين لله والوطن للجميع، كلما سابقت الزمن لإنجاز أكبر، كانت تذهب كثيرا إلى النيل، تجلس أمامه، تلمح غضبه، مياهه راكدة لا تتحرك، حتى الأضواء التي تزين صفحته أصابها الخفوت، ولم يعد يرحب بها، عجلة الزمن توقفت عنده أيضا، الأماكن تشعر بساكنيها، بل تكاد أن تكون هي أكثر

تعبيرا عن الوجع، تعود إلى البيت منهكة ولكنها تشعر بسعادة، تشعر ببصيص أمل قادم، كل المؤشرات تقول هذا، المصريين شعب صعب المراس، لا يقبل أن يخضع لتهديدات وإملاءات غير مقتنع أو مستوعب لها، (فريد) كان يشاركها نشاطاتها، ينزلان سويا بعد المغيب، يمران على المحال بأماكن أخرى، يتحدثون مع الناس عن ضرورة إقبالهم على التوقيع من أجل خلاص منتظر، يجلسان إلى أولادهم، يحكون لهم بعضا من تاريخ مصر، وأن مصر ساكنة داخل كل أبنائها، ينامان متشابكي الأيدي، كأنها نداء للغد المأمول، تتصاعد درجة غليان الشارع، يصرخ رفضا لعباءة سوداء تغلق كل منافذ الحياة، كل يوم مليونيات، رافضة للركوع المذل، بدأت نداءات ومبادرات لعودتهم لرشدهم، فشلت كل المبادرات، أغلقوا كل الأبواب دون التخلي عن مفاهيمهم الظلامية

جاء النداء لكل أطياف الشعب للنزول إلى الشوارع والميادين، بعد تمكن تمرد بالحصول على اكثر من خمسة عشرين ألف توقيع بسحب الثقة من الرئيس وجماعته وعشيرته، باليوم المحدد سارعت هي وزوجها وأبنائها للنزول، اتفقوا مع أبناء العمومة والعمات والأصدقاء أن

يلتقوا بالميدان، يا الله ما هذه الحشود، كل البيوت أفرغت ما بها، الكل يهرول ملبيا النداء، هو الوحيد الذى لا ينتظر، الكل يحمل الأعلام، الأبناء الصغار محمولين على الأكتاف، الحناجر تهتف وتهدر باسم مصر، تتصاعد الأغاني الوطنية من كل الجنبات، لا مكان لقدم، التحام كل الفئات، جيش وشرطة ومدنيين، يصنعون رسالة أن الوطن لا يمرض ولا يموت، وأن الظلام لا يستمر طويلا، اذا الشعب يوما أراد الحياة، فلابد لليل أن ينجلي ولابد للقيد أن ينكسر، قالها الشابي شاعر تونس، ولكنها لم تكن تعبر فقط عن تونس، تعبر عن كل شعب آبى، انصهرت الجموع، لا تمييز بين مسلم ومسيحي، لا تمييز بين غنى وفقير، حتى أبناء الجاليات العربية، شاركوا وتفاعلوا، هم يعشقون مصر، مصر على مدار تاريخها حضن للعرب، والوافدين من بلاد أجنبيه، المطالبات برحيل الرئيس ومكتب الإرشاد والجماعة مطلب حتمي، ظلوا على تواجدهم خلال أيام تجمع الشعب، وجاءتهم أنباء أن كل شبر من مصر كان على نفس الحال، الوكالات الإخبارية والأبواق الإعلامية بشتى مسمياتها تتواجد بكثرة، تنقل الحدث غير المشهود والمسبوق من قبل، أعلن على الحشود ان الرئيس المخلوع وجماعة الشر ، قد أصبحوا

رهن الاعتقال، والإقامة الجبرية، تنفس الشعب الصعداء، رقص وغنى وتعانق الجميع، انقشع الظلام والغيم من السماء، وسبحان الخالق، السماء عادت صافيه، تشاركهم فرحة التحرر، من فورهم أسرعوا إلى النيل، قابلهم ببسماته، بسريان مياهه بسلاسة، حتى المراكب والسفن تطلق صيحات الفرح، يلوح ركابها بعلامات النصر.

..عادت النوافذ مفتوحة على مصراعيها، عاد الإشراق للوجوه، عاد الهواء نقيا تفتح له الصدور، عاد إلى نسيمه العليل المنعش المداعب للوجوه برفق وحنان ،سبحان الخالق، كل مخلوقاته، حتى الجماد بها أرواح تشعر بساكنيها، بأحزانهم وأفراحهم، عادت مظاهر الحياة إلى طبيعتها، عاد الحوار الودود بين الجميع، عادت الأغاني الصادحة التي تحمل فرحه، وإن ظل بين الحين والحين وجود بعض المنغصات، تفجيرات وعمليات إرهابية، وقتل للشرطة والجنود العسكريين والمدنيين، هم لا يفرقون بين أحد، هم يعيشون على الدماء، هم دراكولا العصر، ولكن الكل يتصدى لهم، صاروا بجزر منعزلة، جلست مع بعض بنات أعمامه، وعماته طرحت عليهن فكرة أن يتشاركن بمصنع

ملابس، وأيضا معرض بمكان متميز لعرض الإنتاج، شرحت لهن أن المصنع سوف يهتم بإنتاج أزياء للكل، من الطفل حتى الأعمار المتقدمة وللجنسين، هي تجيد التصميمات، وافقن بلا انتظار، كلفوا رجالهن بتولي أمر اختيار أماكن مناسبة، طال بحثهم لبعض الوقت، بالنهاية توصلوا إلى محل كبير، ممكن أن يشمل المصنع والمعرض، صاحبه توفى وورثته ليس لهم علاقة بعمله السابق، كل يريد حصته من الميراث، تم إنهاء كل الإجراءات بعد تفاوض طال امده، للحقيقة كان الموقع جيدا، بشارع متفرع من ميدان الدقي، بدأوا التجهيزات، وشراء الماكينات، خلال شهور كان العمل يسير كما حلمت وخططت، إقبال كبير على مصنوعاتها، كانت تجمع بين الجانب الشرقي والغربي، بشكل متجانس جدا، أصرت المشاركات معها على إطلاق اسمها هي على المحل، هي من تصمم، وتجرى اتفاقات التسويق، وهن مجرد معاونات بما يفهمن به سموه (رشيدة فاشون).

(جلال) نقل إقامته الدائمة ببيته بالعزبة، وقال للجميع، لن أغادر، من يريد الحضور أهلا وسهلا، يبدأ يومه بالذهاب لدار تحفيظ القرآن الكريم، يجلس بعيدا يتأمل الصغار، وهم

يتلون القرآن، القرآن يبنى نفوسا وضمائر أقرب بشكل كبير المثالية، يطمئن على كل احتياجات الدار، يسرع بتلبيتها، يجلس دوما مع أقربائه يحكون حكايات الأمس واليوم، يتناقشون ويتبادلون الآراء في بعض مشاكلهم الحياتية، حدد الجمعة الأخيرة من كل شهر لحضور بناته و أزواجهن وأحفاده، مع حضور ولده وزوجه وأبناؤه، يصلون جميعا معا، ثم الذهاب للحقل، يبسطون بساطا على أرض على رأس الحقل، ليس بها زرع، يضعون الطعام المعد أو ما جاء مع الأبناء، يأكلون بكل الشهية، الضحكات والمشاكسات والمداعبات هي إطار الجلسة، الصغار يسرعون بإنهاء طعامهم، يهرولون بين الحقول، يقذفون البعض بالنباتات، يدعو الجميع للالتفاف حوله، يستمع إلى أيامهم الماضية، يدعو لهم بالمزيد من النجاحات، يحكى لهم حكايات عن أبيه، وعن أمه، عن الآثار، عن أمور كثيرة، أحيانا تتوه منه خيوط حكاية، يصمت محاولا التذكر، وعندما لا يتذكر يقفز إلى حكايات أخرى، رغم وصوله لعمر تجاوز الثمانين، إلا أنه مازال فتيا، عفيا، (بخيتة) ظهرت عليها علامات الزمن أكثر منه، وزاد وزنها لحد كبير، هذا اليوم كانت تعتبره إعادة

ضخ الأوكسجين المنقى المفعم بالحب والصفاء إلى حياتهما، يعودان وهما بشوق للقاء القادم.

..كانت تذهب لزيارة أهلها كل سته أشهر، كثيرا ما كان يصاحبها، يسيران بذات الشوارع التي مشوا بها دوما، يتذكرن كل اللحظات، يتضاحكان، تستدفئ بوالديها، أصابتهم الشيخوخة لحد كبير، كانت تأخذه هو والأولاد إلى الشاطئ وإلى ذات المكان الذي قابلت العرافة به، تخط على الرمل، هنا كانت أول الحكاية، يجلسان ليلا بالشرفة، يرتشفان القهوة، تسرع إلى الكاسيت، تخرج من حقيبتها الشريط، تضعه داخله، تسمع بإنصات تام، شيء من بعيد ناداني، بصوت (شادية ومنير وليلى جمال)، تردد مع الغناء، وقد تنهض تفرد ذراعيها، تلف وتدور على أطراف أصابعها، كأنها بليرينا بالأوبرا، بإحدى زياراتها، طلبت من أحد صانعي الرخام، لوحة بنوع فاخر منه، مكتوب عليها بالعربية والإنجليزية، شيء من بعيد ناداني.

تمت

احمد طايل

طنطا في الثالث عشر من مايو 2022